نقطة تبادل التوابيت

قصص



جودت جالي

نقطة تبادل التوابيت

قصص

جودت جالي

2020

ذات مرة

اجتمعنا مرة في جلسة صغيرة
على تخت مقهى حنش المغلق آخر الليل
مر علينا حميد... وقال
" خال شكو عدكم هناه؟ هسه يجيكم فارس بني خصيان. آني معليه"
وراح يدندن مارا من أمام مركز الشرطة
ثم استدار في دربونة الجامع
نحو شارع السكراب
يدندن سعيدا بيوسف عمر
ليغفو غفوة الفجر في كيلة شفل عاطل.

أسماء الجمال

تفقَّد اليوم المزهريات التي وضعها في الممر. سره أنها لا تزال، برغم الحر وانقطاع المياه، تقاوم وتُظهر جمالها، ولكنه في الوقت نفسه انتبه، أو تذكر، أنه لا يعرف أسماء العديد من الزهور التي فيها، فحزن.

لم تمنحه ظروف حياته الوقت الكافي ليجالس الجمال ويعرف أسماءه. كان يمر بألوانه أو تمر هي به دون أن يخطر بباله أن يوقفها ليقول: "مرحبا... إسمي عبد" فتفيض عليه بأسمائها. ليس بمقدور الحياة التي لم يتسن لها أن تعرف الجمال أن يكون لها إسم لتقول: "مرحبا....أنا حياة".

العناوين

مودرن

الدوبة

تفحص عوف الحبال التي ربط بها كل ما لديه من إطارات عتيقة على جانب المركب من جهة الضفة التي كسيت بأحجار قسم منها غاطس في الماء فيما يرتفع الظاهر عن سطحه مترا تقريبا. فكر أن هذا الرصف الحجري ربما معد ليكون قاعدة لبناء ما على النهر، توضع فيه مضخة كبيرة أو شيء من هذا القبيل. اطمئن الى أن الإطارات ستمنع ارتطام بدن المركب بالحجر بفعل التيار. لقد أمره رئيس العمال في فرع الشركة بالعودة بالمركب منفردا محملا بشحنة من أكياس رز وسكر وشاي لمقر الشركة في بغداد، وقد حمد الله لأن رئيس العمال وجه له هذا الأمر وإلا كان سيصعب عليه، في حالة سحبه لدوبات* محملة بالبضاعة، أن يوقفها هنا ويثبتها في مكانها بسبب التيار.

نزل من على اللوح الخشبي الذي أسنده الى الحجر ليربط حبل المركب بشجرة صفصاف ثم عاد الى سطحه وظل واقفا يتأمل المنظر من حوله. شجيرات سوس متشابكة متزاحمة حد التدلي في النهر، وصفٌ من نخيل متباعد بموازاة النهر لا يبعد عنه سوى خطوات، وفي الخلف السدة الترابية العالية وبعدها السماء التي أوهنت زرقتها شمس الظهيرة، وغيوم بيض متفرقة، وطيور مهاجرة نحو الأهوار لا يتبين أشكالها القاتمة وهي في طيرانها الشاهق. على طول الإمتداد الصخري المنخفض للضفة، من الشرق ومن الغرب، تغطت الأحجار بالأعشاب والحشائش النهرية النامية بينها، وفي الطرف الشرقي الأقصى من الحجارة المرصوفة قرفصت إمرأتان تملآن قدرين بالماء وتختلسان النظر اليه بين الحين والآخر فيما وقف خلفهما صبي في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره. كان ينظر اليه مباشرة، لم يكن يحول نظره عنه، أو بتعبير أدق، لم يكن يحول نظره عنه وعن ماكنته ذات الكابينة المنتصبة في المقدمة والتي يمتد خلفها سطح طوله سبعة أمتار، نهايته مستقيمة بالعرض لكي يسمح بربط دوبات البضائع. رصفت الأكياس على هذا السطح وفي داخل العنبر الصغير تحته. ربما لم ير الصبي آلة كهذه من قبل، أو لم يرها عن هذا القرب، وقد بدا لعوف أنه في حين كان يحدج المركب

بعين الفضول والتطلع يشع وجهه بارتياح هو أقرب الى الانبساط الطفولي منه الى الفضول، تطلع بريء مفتوح النفس يفيض على وجهه المدور، فيما كان الهواء يعبث بلمة من شعره أسود اللون تدلت فوق جبينه.

التفت عوف الى الوراء، الى الضفة الأخرى حيث يعرش الكثير من السوس أيضا ومن أشجار الصفصاف وتتناهى اليه منها أصوات طيور شتى غير مرئية ولا يرى، من حيث، يقف سدة أو أي مرتفع وقد بدا له ذلك الجانب غير مأهول، متشابك النبات كجدار أخضر يمتد مع النهر على الماء مباشرة حتى تواريه استدارة النهر الغربية التي يضيق النهر قليلا عندها بعكس الجهة الشرقية حيث ينفتح النهر في استقامته ويكاد يخيل اليه أن ماءه يصبح أكثر ارتفاعا وأسرع جريانا. أغصان تنساب مع المياه ودوائر تظهر بين الحين والآخر لتضمحل مع تقلب المويجات الملونة باللون الغريني وبروز مفاجئ هنا وهناك لأسماك ما تلبث أن تختفي أسفل السطح بمجرد ظهورها.

تملكه إحساس بأن الصبي لا زال ينظر اليه من مكانه ولكنه عندما استدار رأى المرأتين تصعدان السدة والقدران على رأسيها وفي شغل عن أي شيء بمحنة هذا الصعود والماء المتلاطم الذي يتناثر رذاذ منه على كتفيهما وعلى الأرض ويهز قدريهما ويكاد يسقطهما الى الخلف. غير أن الصبي كان يسير مقتربا وبيده قدره الفارغ. لم يكن عوف وقتها في مزاج مناسب لإشباع فضول طفل رأى مركبا يرسو فجأة عند ضفة النهر المقابلة لمنازل أهله في صدفة نادرة مبهجة، إنه الآن مشغول البال بشأن مركبه العاطل. كان قد أرسل، فور توقفه هنا، مساعده الميكانيكي مع مبلغ من المال حتى يبلغ الشارع العام سيرا على الأقدام لعله يصادف سيارة حمل مارة تقله الى معبر مدينة الدوير حيث يأمل أن يرسل برقية بعطل المركب ويجد في محل عُدَد المراكب النهرية ما يحتاجه من أدوات احتياطية لإصلاح العطل ويستأجر مركبا للعودة اليه سريعا. تقع ناحية الدوير على مبعدة نصف ساعة سيرا بقارب ذي محرك ولكنه لا يدري كم سيستغرق صاحبه من الوقت للوصول اليها. برغم ارتياحه لأمر رئيس عمال الشركة الذي جنبه مشاكل جسيمة إلا أنه لم يستطع منع نفسه من التفكير في أنه تسبب أيضا في تجريده من إمكانية تلافي العطل فقد أنزل العمال الثلاثة، وأحدهم المشغل الأقدم

الخبير في هذا النوع من المحركات، ليسلمهم مركبا آخر بحجة أن هذا المركب لن يحتاج في عودته الى هذا العدد من العمال، وكلف ميكانيكيا ليس من ضمن عماله بمرافقته.

ذهب الى الأكياس ليتفقد مبلغا من المال كان قد دسه مع مسدس كولت بينها فوجدهما حيث وضعهما. فكر أنه ما دام قد توقف هنا فمن المستحسن أن يحمل الخمسين دينارا في جيبه فقد يصعد الى ظهر المركب شخص ويجدها. أخرج المسدس أيضا، محاولا أن لا يراه الصبي، وذهب به الى الكابينة حيث وضعه مع عُدد في خزانة حديدية صغيرة. شاهد عددا من النسوة ينزلن السدة نحو النهر وهن يحملن قدورا وأواني وقد إرتفع لغطهن لكنهن عندما رأين عوف إنخفض صوتهن الى الهمس. تجاهل الصبي وتوجه الى غطاء صندوق المحرك وفتحه. مسح بيده حول فتحة خزان الوقود فشعر بشيء كالرمل. هل ألقى أحد حفنة من الرمل مع الوقود؟ ولكن هذا العمل قد يتسبب بإنفجار المحرك أو إحتراقه على الأكثر بعد دقائق من وضع الرمل. لا، لا يمكن... هذا يحدث إذا وضع أحدهم الرمل في العادم. ما هذا الرمل الموضوع هنا إذن؟ هل يمكن أن يكونوا قد عبئوا الخزان بعبوات متسخة بالرمل؟ نزل الى الكابينة ليفتح الباب الجانبي المجاور لعتلات القيادة. شغل المحرك الذي أطلق اصواتا قوية كإطلاقات البندقية أجفلت النسوة وإسترسل في صوت متقطع أخذ ينخفض شيئا فشيئا حتى إنطفأ. في هذه الأثناء رأى العمود الذي يدير الداسرين ثابتا لا يدور.

مسح يديه بقطعة قماش وهو ينظر الى رجلين ينزلان نحوه السدة من بين السوس. أحدهما يرتدي دشداشة كانت زرقاء في زمن مضى ويعتمر يشماغا بدا لعوف مصبوغا بلون رمادي ويضع في حزامه خنجرا دون غمد، والآخر يرتدي دشداشة حال بياضها الى إصفرار يدكن عند أطرافها ويضع على رأسه قطعة كوفية بيضاء وسخة، وكلاهما يحمل عصا خيزران تنتهي بقطعة قير كروية.

صعدا الى القاطرة وألقيا التحية على عوف الذي خرج من الكابينة الى سطح المركب. لم يعجبه وضع صاحب اليشماغ الرمادي، ملامحه توحي له بالمكر وعيناه لا تستقران، كثير التلفت، وهو أول من سأل:

– خير إن شاء الله.. هل توقفت لزيارة أحد هنا أم لعمل أو تجارة؟

ثم إستدرك ملطفا سؤاله:

- نحن نعرض لك بالخدمة....

أجابه عوف مبتسما:

-شكرا... لكن لا أظنك تستطيع عمل شيء فالمركب عاطل ويحتاج الى تصليح.

فكر عوف بأنه من البديهي أن يأتي أحد ليطرح عليه الأسئلة إن عاجلا أم آجلا، سواء بدافع الفضول أو رغبة في المساعدة، ولكنه لم يكن يرتاح لنبرة الرجل الذي كان يضع سنين من الفضة الرخيصة في مقدمة أسنانه استحال بياضهما الى سواد:

-تبدو وحدك... لماذا أنت وحدك؟ أنا عادة أرى مثل دوبتك* هذه وعلى ظهرها العديد من العمال.

حاول عوف أن لا يُظهر ما يشي بمخاوفه مما تنطوي عليه أسئلة الرجل من إحتمالات أحدها أنه يريد التأكد من أن عوف وحده ولا يوجد معه، أو قريبا منه، رفيق له. أجاب بأقصى ما يستطيع من الثقة:

- لم نحتج لعمال كثيرين فحمولتنا خفيفة. معي ميكانيكي ذهب ليحضر أدوات إحتياطية وأتوقع أن يعود عصرا، كما أن مركبا يتبعنا بحمولة أخرى سيصلنا قريبا ليقطرنا إذا لم نستطع إصلاح العطل.

في هذه الأثناء كان الرجل الثاني، الأقصر قامة والأكثر هزالا، يتجول ويستطلع. وقف عند أكياس الرز والسكر وأطال النظر اليها، وعوف يراقبه بطرف عينة بين الفينة والأخرى. تمشى ذو الكوفية الرمادية الى مقدمة المركب وسأل:

-إذا دبرنا لك أربعة قوارب، حتى ولو بمجاديف، مع رجالها ألا يستطيعون جر الدوبة الى الدوير؟

ضحك عوف وهو يفكر أن هذا لو كان ممكنا حقا فلن يطول الوقت حتى يسحب المركب قطاع طرق الى هورة التلول القريبة بعد أن يقتلوه ويرموه في النهر. كشر كلاهما لضحك عوف وإقتربا منه. تحدث القصير هذه المرة قائلا:

-يمكنك أن تكون ضيفا علينا في قريتنا التي تقع بعد الدغل قرب الشارع العام ... مسير أقل من ساعة.

فتح فمه ليسألهما عن إسميهما فيما كانا ينزلان من المركب ولكن خطر على باله أن يسألهما عن هذا الإكساء الحجري لمجرد الإيحاء بأنه في وضع طبيعي وغير مرتاب:

-هل هذه الأحجار موجودة أصلا أم وضعها أحد لغاية ما؟

إستدارا نحوه بعد أن إرتقيا الأحجار وأجابه القصير:

-هذه الأحجار أمر بجلبها من منطقة بعيدة ووضعها هنا الشيخ الذي يملك الأراضي الزراعية في هذه الناحية لتقوم عليها بناية ماكنة ضخ ماء، ولكنه لسبب ما لم يكمل البناء...

رفع ذو الكوفية الرمادية الذي كان مطرقا رأسه:

-هل سمعت شيئا وأنت في طريقك عن حركة؟... يسمونها ثورة... يقولون في بغداد ...

هز عوف رأسه بالنفي:

-نحن منذ الأمس في طريقنا في النهر نسير سيرا بطيئا ولا أعلم شيئا.

تابع الرجل قائلا:

-يقولون أن شيخ العشيرة المجاورة قتل هذا الصباح قهوجي مضيفه فقد تلقاه هذا، وقد تناهى اليه خبر الثورة، حاملا مجرفة وهو يهزج ويقول «هل ظننت أن الظلم يبقى الى الأبد؟» فما كان من الشيخ إلا أن أرداه برصاصتين وبصق على جثته... دنيا عجيبة...

قال القصير مبتسما باستخفاف:

-ولماذا العجب؟ هل تعرف بأن هذا الشيخ الذي ذكرته الآن شاهد مرة فلاحا يرتدي حذاء جديدا في العيد وكان قد جاء الى مضيفه ليعايده فزجره قائلا إذا كنت أنت ترتدي حذاء جديدا فما الذي أرتديه أنا إذن؟

ندت من عوف كلمة تعجب لم يستطع كتمانها:

-معقولة؟!

-أنا كنت حاضرا ولم يقصها علي أحد... يبدو أنك على نياتك. هذه الدنيا تحوي أشكالا وألوانا.

بعد أن قال القصير كلماته الحاسمة الجازمة هذه تحول بنظره الى الأكياس المرصوفة على المركب والتي بدت هي شغله الشاغل منذ مجيئه وصاحبه. ضيق فتحتي عينيه وتوترت ملامحه وهو لا يزال يرمقها بنظره وقال:

-هل تحمل هذه البضاعة لأحد الشيوخ أو التجار....؟

هز عوف كتفيه وأجاب:

-هذه للشركة.... غذائية لعمال المناوبة.

انصرف الرجلان. فكر فيما يتوجب عليه فعله بعد الآن وهو ينظر اليهما يرتقيان السدة ويتحدثان بهمس ويلتفتان نحوه بين الحين والآخر. قد يكون لهذين نوايا سيئة وجاءا للاستطلاع، وإذا توجب عليه المبيت قد يعودان ليلا ، بنية السطو أو بما هو أسوأ. ندم لأنه لم يقل لهما بأن الحمولة، لا بل المركب كله بحمولته، تابع لشيخ أو تاجر في الدوير وهو يعرف بعض الأسماء. هذا وحده كفيل بثني من يفكر بالاعتداء عن نيته. أصبح لزاما عليه أن يذهب الى القرية التي خلف السدة ليطلب حماية كبيرها فيضمن سلامته وسلامة المركب. والأمر الثاني أن خلاصه من هذا المأزق يبقى رهنا بعودة مساعده سريعا أو بمرور مركب شحن يقبل ربانه أن يقطره فيلحق به. المشكلة هي كيف سيترك المركب بما عليه من حمولة ويذهب الى القرية، هذا إذا كان يوجد خلف هذه السدة قرية ولها كبير وليست بيوتا متناثرة. أخرج منديله من جيب سرواله الخلفي ومسح وجهه ورقبته من العرق ثم أخرج علبة سجائر غازي وأشعل منها سيجارة سحب منها نفسا عميقا نفث دخانه وهو يفكر ناظرا الى الماء يعلو غامرا تماما صفا من الحجر ثم ينخفض بلطف كاشفا عنه.

كان حتى تلك اللحظة قد نسي وجود الصبي الذي أخرجه من استغراقه في التفكير:

-هل هذه الدوبة لك؟

التفت فرآه يبتسم باستحياء ابتسامة واسعة تكشف عن أسنان تسوس نصفها. أجابه وهو يتوجه الى الكابينة:

-لا.... مال الناس.

كأن الصبي رأى في جوابه دعوة له للصعود فصعد اللوح الى ظهر المركب بخطوات خفيفة وقد خلف قدره وراءه على صخرة. لم يشعر عوف إلا والصبي خلفه عند باب الكابينة وهو يتطلع بعيون واسعة مندهشة الى حجيرة بعضها من خشب وبعضها من حديد مليئة في الأمام بلوحات قياس مدورة زجاجية وعتلات مختلفة خضراء اللون وقد إمحى من القبضات لونها لكثرة الاستعمال خلال الفترة الطويلة التي عمل فيها هذا المركب الانكليزي القديم، وحدق بجانبيها اللذين كانا على شكل خزانتين حديديتين مقسمتين الى عدة أقسام.

-أليس هنا مقود كما في باص جبارة؟

حين استدار عوف لسماعه السؤال كاد وجهه أن يرتطم بوجه الصبي المشرئب فتراجع وهو لا يملك سوى الابتسام له بعد أن كان ينوي أن يطلب منه النزول والإبتعاد. أمعن النظر في الوجه الذي لم تطبع السنين على بشرته آثار أحذيتها، ولازال لونه، لون الطين الحري، ناعما، مدورا، تعلوه كتلة شعثاء من الشعر الأسود، وتتوسطه عينان لا تكفان عن التساؤل وأنف أفطس قليلا، وفم صغير على أهبة الكلام دائما، منفتح على الأسئلة كعينيه الكستنائيتين. شيء ما في الصبي، براءته، شغفه بالإطلاع، فضوله الطفولي جعله بدلا من أن يطرده يسأله:

-من هو جبارة؟

سر الصبي للسؤال وقد ازداد اطمئنانه الى أن الرجل لن يطرده:

- جبارة عنده باص خشب يمر على هذه السدة كل يومين أو ثلاثة، والذي يريد أن يذهب الى الولاية ينتظره من الفجر.

-حسن.... لا يوجد هنا مقود مثل الذي في باص جبارة. لقد خاب أملك... هاه؟

-كيف تسوقه إذاً؟ ألا ينحرف ويصطدم بالجرف؟

رأى عوف، ما دام قد تورط في هذا الحديث التعليمي، أن يتم الدرس:

-أنظر هنا... ولكن لا تمد يدك الى شيء فقد تتأذى.

امتثل الصبي لأمره واعتدل في وقفته وانزل الى جانبيه يديه اللتين كان مستندا بهما الى باب الكابينة إذ لم يعرف بالضبط مم قد يتأذى. أشار عوف الى فرضة في الحديد الى يمينه تخرج منها عتلة أرفع وأطول قليلا من باقي العتلات:

-.... هذه العتلة تضعها على الرقم واحد يعني السير الى الأمام، وعلى الرابع يعني الى الخلف، وعلى الثاني بطيء، وعلى الثالث سريع.

وأشار الى عتلة عمودية طويلة خارجة من فتحة في الارضية:

-... وهذه للإستدارة الى اليمين أو اليسار...

ونظر الى الصبي وهو يضحك ضحكة خافتة:

-هل فهمت؟.... عندما تكبر سآخذك لتشتغل معي.

ثم قال محدثا نفسه بصوت مسموع وهو ينظر في الاتجاه الذي ذهب فيه الرجلان:

-المهم الآن أن أجد من يؤمن لنا سلامة المركب والحمولة.

-عمي... أنا أحرسه.

ضحك عوف:

-طبعا.... أنت تتمنى أن أسمح لك بالبقاء في المركب.

ثم تأمل قليلا وهو يمسح بقطعة قماش على المقاييس والتفت الى الصبي:

-أنت ولد ذكي.... هل يمكنك أن تأخذني الى أهلك.

أجاب الصبي بحماس:

-أجل... يمكنني أن آخذك الى أبي وتقول له ما تريد. سيساعدك حتما.

-هو طيب بالتأكيد، ما دمت أنت إبنه..... المسافة الى البيت ليست بعيدة. أليس كذلك؟

-لا ليست بعيدة. وراء السوس مباشرة.

ملأ الصبي قدره بالماء ووضعه على رأسه. أخذا يصعدان السدة وعوف يسند القدر بيده لكي لا ينسكب الماء.

-أليس هذا عمل أمك أو أختك الكبيرة؟

أجاب الصبي وهو يجاهد لكي يبقي القدر ثابتا على رأسه. في الحقيقة أن القدر لم يكن كبيرا جدا ولكن الفتى لم يعتد نقل الماء من النهر لأهله:

-أمي مريضة وأختي أصغر مني.

هز عوف رأسه متفهما وظل يسند القدر بيده حتى أصبحا فوق السدة.

عندما ارتقياها التفت عوف يمينا ويسارا فلم ير عليها أحدا على مد النظر، ولما نظر الى الأمام رأى السوس يمتد من أسفل السدة الى مسافة بعيدة لاحت له في أفقها سيارتان تبدوان كنقطتين تتحركان ببطء.

-أين قريتكم؟ لا أرى بيوتا.

-وراء السوس عمو. لا يمكن رؤيتها من هنا.

-هل السوس عال الى هذا الحد؟

-عمو بيوتنا ليست عالية مثل بيوت الولاية. تعال معي وسترى.

فكر عوف أنه، وفقا لكلام الفتى، سيرى بيوتا طينية منخفضة أو صرائف أعلى من قامة الرجل بقليل.

-لماذا السوس بهذه الكثرة هنا؟

– السوس ينمو هنا من قديم الزمان، وهو الآن تابع لشركة ولا يسمحون لنا بقلعه وزراعة الأرض.

–كيف تتدبرون معيشتكم إذا، وكيف سمحوا لكم بالسكن هنا؟

–قسم من رجالنا يعملون حراسا على السوس والقسم الآخر يعملون في المعمل. هناك وراء ذلك البستان.

نظر عوف، وهما ينزلان السدة، الى حيث أشار الصبي فشاهد بستانا بعيدا لا غير، والمعمل لا يبدو منه شيء. سار خلف الصبي في الدرب الضيق الذي يسير فيه أهل القرية للوصول الى السدة أو النهر. انتبه الى أنه لم يسأل الصبي عن إسمه:

–ما اسمك؟

–حاكم؟

–اسم يناسب شخصا أكبر منك عمرا.

–يأتي يوم وأكبر.

–جواب ذكي يليق بإنسان بالغ، فأنت تستحق هذا الإسم إذاً.

أصبح لا يرى شيئا من حوله غير السوس الذي يضطر لدفع أغصانه أحيانا لكي لا يرتطم رأسه بها.

–مكان مناسب للصيد. هل تصيدون طيورا هنا.

أجابه الصبي وهو يلهث قليلا:

–أنواع الطيور، ويصادف أن تأتي حيوانات أخرى.. حتى الذئاب.

–ذئاب؟

–نعم ذئاب كبيرة. تأتي في الليل وتأخذ نعجة أو معزى.

-لماذا لا تنزلون هنا قرب النهر في مكان مكشوف؟

-الأرض التي قرب النهر تابعة للشيوخ ولا يرضون أن ينزل فيها أحد غير الفلاح.

-ولماذا إذن هي غير مزروعة؟

-عمو... أنت لا تعرف وضعنا هنا. قبل فترة سب أحدهم عمي وطرده لأنه قطف من حافة الساقية التي قرب بيته قليلا من النعناع البري بينما يوجد النعناع على حافة أية ساقية هنا.

-حقا إن حياتكم صعبة.

وكف عن التحدث مع الصبي رفقا به لأنه لاحظ أن الكلام يتعبه وهو يحمل هذا الثقل على رأسه.

في تلك اللحظة سمع صوتا مألوفا، صوتا كالذي يصدر عن ارتطام عارضة الحاجز الجانبي للمركب بسطحه عندما تنزع لتفريغ الحمولة، تلك الرنة التي طالما سمعها خلال السنوات التي قضاها على ظهر مركب "الدوبة" هذا. عرف أن شخصا أو عدة أشخاص يوجدون الآن على ظهر المركب، ورجح أن الرجلين عادا بصحبة آخرين. عاد سريعا هو والفتى الذي ترك قدره أرضا وتبعه، تأكد ظنه عندما أصبح فوق السدة باستثناء أن أحد الرجلين كان موجودا فقط مع خمسة رجال ومعهم خمسة زوارق خشبية واسعة مسطحة القعر. فيما الرجال ينقلون الاكياس الى الزوارق تباعا كان ذو السنين الفضيين الصدأين مستندا الى الكابينة وبيده مسدس عوف مركزا نظره باتجاه السدة كأنه يترقب ظهوره. وقف عوف يلتقط أنفاسه قبل أن ينزل بحذر وعينه على الرجل الذي صاح به حين وصل الى الأحجار:

-توقف عندك.... لا أريد أن أؤذيك.

قرفص عوف وقرفص الصبي الى جانبه. قال:

-لكنكم آذيتموني فعلا.... أنتم تنهبون حمولة بذمتي وسيغرموني ثمنها مضاعفا.

رد عليه الرجل ساخرا:

- هذا إذا وجدت أحدا في الشركة يغرمك.

-ولماذا لا أجد؟

-إنها حركة مثل حركة رشيد عالي. ألا تذكر الضنك الذي حاق بالناس خلالها؟ ربما أسوأ حسب الأخبار التي سمعناها من راديو مضيف الشيخ اليوم صباحا.

-وما ذنبي أنا؟

-وماذا يأكل الشعب؟

-وتريد توفير قوت الشعب على حسابي؟

-قل لجماعتك في الشركة الحقيقة من أنك تعرضت الى عملية تسليب.

-هل أرسلكم الشيخ الذي ذكرته الآن؟

-لا علاقة له. هو نفسه خائف مما ستؤول اليه الأمور.

-لكن ما تفعلونه سرقة وحرام.

-إجلس حيث أنت ودعنا ننجز ما أتينا لإنجازه.

أشار عوف الى المسدس:

-والمسدس؟ هذا مسدسي وليس ملكا للشركة؟

نظر الرجل الى المسدس وقلبه بين يديه وقال:

-هل سمعت يوما أن لصا عثر على سلاح صاحب البيت وتركه له؟ إنه من ضمن الغنيمة طبعا.

لاذ عوف بالصمت وظل يراقب الرجال الخمسة ينقلون الأكياس بهمة عمال ماهرين فيما زعيمهم واقف بمواجهة عوف يراقبه ويلتفت بين الحين والآخر اليهم يستعجلهم. سمعه يقول لهم:

-أتركوا له من كل نوع كيسا!

ثم نظر نحوه مبتسما ابتسامة المتفضل.

ذهبت الزوارق محملة حتى لتكاد تغطس في الماء، كل رجل يجذف قاربا، واختفت مع انحناءة النهر الشرقية المكتضة بالقصب العالي والحلفاء.

نهض عوف والتفت الى الصبي ليرى إن كان خائفا فدهش لأن ما رآه على وجهه ليس علامات خوف بل تطلعه المألوف وإن كان بعض التوتر باديا عليه. سأله:

-هل تعرفهم؟

هز الصبي رأسه بالنفي وهو لا يزال ينظر الى حيث اختفت الزوارق. قال عوف باستسلام:

-حسن....

وارتقى اللوح. دخل الكابينة. رأى الصندوق الذي وضع فيه المسدس مفتوحا ولكن أوراق المركب فيه لم تمس. تحسس تحت الأوراق حيث أخفى المجلات المليئة بصور الجميلات العاريات والمناظر الخلابة والتي يحصل عليها أحيانا من العمال الأجانب في الميناء أو سائقي الشاحنات الأتراك في الموصل. يبدو أنهم لم ينظروا الى ما تحت الأوراق. تجول ونظر في العنبر ثم جلس ومد رجليه وأسند ظهره الى كيس الرز الذي تركوه له والى جانبه كيسي السكر والشاي. أخرج علبة السجائر وأشعل سيجارة. سحب منها نفسا عميقا. نظر الى السماء التي بدأت تشحب زرقتها، ثم الى الصبي الذي كان لا يزال واقفا في مكانه:

-اذهب الى أهلك... لقد تأخرت عنهم وهم قلقون عليك الآن.

سأله الصبي بخيبة أمل:

-وأنت.... تظل هنا؟

أجابه بلا مبالاة:

-أجل.... لم يعد لدي ما أفعله سوى الإنتظار. أنتظر أن يعود صاحبي إلي أو يمر مركب يمكنه قطري.

في تلك اللحظة ظهر رجل على السدة يرتدي دشداشة بنية اللون عتيقة كحال دشداشتي ذينك الرجلين، ويتمنطق بحزام نسيجي من نوع الاحزمة العسكرية ويحمل هراوة، وقد عرف عوف أنه والد الصبي حاكم من نظرته المتلفتة المتلهفة الباحثة. ركض الصبي نحوه ما أن رآه، وفيما كان يركض صاعدا السدة، قال له أبوه مؤنبا بصوت عال:

-أين كنت كل هذا الوقت؟

ووجه نظرة مستريبة الى عوف. أخذ حاكم يحدث أباه حديثا لا يسمع منه عوف شيئا ورجح أنه يخبره عن المركب العاطل والحمولة التي نهبت منه، وأبوه يلتفت نحو عوف بين الحين والآخر وتزول نظرته المستريبة شيئا فشيئا. أخيرا أشار لعوف بيده:

-تفضل الليلة عندنا... ستغيب الشمس بعد قليل ولن تكون مرتاحا لبقائك هنا.

اعتدل عوف في جلسته احتراما وقال وهو يرفع يده الى جبينه إشارة الشكر:

-شكرا لك... دايم. صاحبي ذهب ليأتي بمساعدة ولا بد أن أكون هنا حين يعود.

-كما تشاء.... ولكن كن على حذر. في الليل تخرج من مكامنها شتى الحيوانات... خنازير وضباع... وحتى تأتينا ذئاب من البادية القريبة.

ابتسم عوف متصنعا المرح:

-حتى ذئاب؟ كنت أتصور أن حاكم يبالغ.

-كلا... لا يبالغ. والذئاب يمكنها القفز الى ظهر مركبك وهو قريب الى الضفة هكذا.

ودعه وانصرف وابنه الذي التفت نحو عوف قبل أن ينزلا السدة الى الجانب الآخر. فكر عوف وهو يشيعهما بنظره بأن هذا الصبي شاطر ويتمنى لو كان أكبر سنا ليشغله معه.

ظل عوف يترقب صدفة سعيدة تسنح بمرور مركب ولكن هذه الصدفة كانت عصية على التحقق. تساءل عوف متذمرا "أين ذهب هذا الميكانيكي الأحمق؟ لو ذهبت أنا مشيا الى الدوير لكنت عدت الآن، أنا عالق هنا في هذه المنطقة التي لم يمر بها مركب طوال اليوم.

شيء غريب... أنا مقطوع عن العالم تماما. ربما كان كلام ذي السنين الفضيين صحيحا، وهذا يفسر انعدام الحركة المعتادة في النهر".

فكر بالرجال الذين سلبوه الحمولة؟ ترى من أين جاءوا والى أين ذهبوا؟ لا بد أن والد الصبي لديه فكرة عنهم على الأقل إن لم يكن يعرفهم فعلا، ولذلك لم يشأ التدخل حتى ولو بمجرد التعليق على ما حدث. ربما كانوا قطاع طرق معروفين في هذه النواحي ولا يريد الرجل زج نفسه في مشاكل لا تعنيه. لو كان ذهب معه... لو أنه لبى دعوته... لربما عرف منه بعض المعلومات عنهم أثناء تجاذبه أطراف الحديث معه، ولكن كيف يترك المركب؟

إتكأ على كيس الرز وأخذ يدخن وينظر الى ما حوله. مر الوقت على عوف بمزيج من التوجس والبرم، وشيئا فشيئا استحال التوجس الى خوف مع اقتراب الغروب. تذكر تحذير والد الصبي له. قام وأخرج من خزانة العدد قضيبا حديديا معقوفا من طرف ومن الطرف الآخر على شكل حلقة شد اليه قطعة حديد مستطيلة لزيادة ثقله وربط بالحلقة حبلا متينا ثم رمى مرساته المصطنعة هذه مع جريان الماء ولكن بزاوية مائلة جذب الحبل ليتأكد أن المرساة ثبتت في مكانها وربط الحبل بوتد الحبال الجانبي من جهة الضفة. سحب اللوح الى سطح المركب وفك الحبل الذي ربط به المركب الى الصفصافة وأعطاه طولا أكثر. دفع المركب بعيدا عن الضفة باللوح. عاد وفك حبل المرساة على عجل لأن تيار الماء أخذ يجرف المركب. مرر الحبل عبر حلقة على بدن المركب وبدأ يسحب وهو جالس ومسند قدميه الى حافة فتحة العنبر، كل مرة يسحب قليلا، ويثبت الحبل ليرتاح ثم يسحب الى أن توتر الحبلان واستقر المركب بعيدا عن الضفة وفي خط مائل مع التيار يسمح بانزلاق الماء على جانبه. ربط الحبل مجددا بإحكام ووقف يتأمل ما فعل وهو يلهث. فكر بأنه الآن بعيد عن الضفة والقارب مستقر..... تقريبا. نظر الى راحتي يديه، كان جلدهما مسلخا من أماكن وقد خرج بعض الدم منها. أخرج المنديل وأطبق راحتيه عليه.

الشمس تميل الى الغروب وصاحبه لم يعد. هذا اليوم مليء بالنحس ولن يستغرب إذا علم أن صاحبه وقع ضحية تسليب آخر أو حدث له مكروه. قال له عوف أن يلزم السدة غربا ولا ينزل عنها إذ لا بد أن تتقاطع في مكان ما مع طريق للسيارات. تنهد بيأس وعاد الى مجلسه ويداه لا تزالان تحتضنان المنديل. أسند كتفيه ورأسه الى الكيس وأخذ يراقب السماء تزداد عتمة مع

اختفاء قرص الشمس خلف مجاهل الضفة الأخرى التي أخذت ملامحها تمّحي شيئا فشيئا في الظلمة التي تنبث من حوله. نظر الى الماء الذي أخذ يميل الى الرصاصي الوامض هنا وهناك مع حركة التيار المتموجة. بدأ جلد راحتيه يؤلمه ألما قارصا. تاق الى أن يشعل سيجارة. مال جانبا فاستقرت يداه المطبقتان على حافة المركب وأخذ ينظر الى الماء في ظل القارب وهو يلصف بطلائع الغروب المقترب.

لو أن الأمور سارت ككل مرة لكان الآن يمشي في ساحة الميدان في طريقه الى بهيجة في عرصة باب المعظم. يمر في طريقه على جلّو بائع الشاي في بناية مصلحة نقل الركاب. يجلس ليشرب قدحا مهيّلا، يسميه جلّو (سنكين). لا يعرف هو معنى سنكين ولم يسأل جلو عن معنى الكلمة الغريبة هذه.

يشم عوف المنطرح على جنبه، على حافة المركب، رائحة الشاي الذي صبه له جلو للتو من "رأس القوري"، تضرب أنفه الرائحة المدافة بعطر الهيل مختلطة برائحتي النومي والدارسين المنبعثتين من الغلايات على نار الفحم. يضغط بين راحتيه المنديل ثم يبتسم لجلو الذي يروي له آخر نكتة من نكاته التي لا يسلم منها أحد، من الباشا نوري السعيد الى مطرود البقال صاحب أقرب محل له خارج البناية. يتسع منخرا عوف وهما يسحبان بعمق والتذاذ روائح المقهى الصغير الذي لا يتسع لأكثر من أغراض جلو ومسطبة تتسع لجلوس أربعة.

لو أن الأمور سارت على ما يرام لكان الآن يضحك مسرورا في ذلك الركن الصغير على شارع عام تنشط فيه حركة الناس والسيارات والعربات، وحيث أمامه بالضبط من الناحية الأخرى بقايا سور بغداد. يحرص على المجلات التي يأخذها لبهيجة لتتفرج فيها على صور النساء الأنيقات، وتطيل النظر للكاشفات عن مفاتنهن وترمقه بطرف عينها بغنج بين الحين والآخر ثم ترميها جانبا مؤجلة التفرج عليها الى وقت آخر. أما الآن فعوف معها وستبذل له من نفسها ما جاء لأجله تلك الليلة، فإذا ما أرهقهما البذل ناما متعانقين متلاصقين الى الصباح. نعم كان سيكون الآن واضعا في حضنه المجلات وقد أخفاها في كيس من أكياس بريد الشركة الورقية السمر الكبيرة، يضعها في حضنه لكي لا يأخذها في غفلة منه جلو ...

« ماذا في هذا الكيس؟»

«بريد الشركة»

«بريد الشركة؟»

ويظل جلو غير مصدق ويظل يرمق الكيس بفضوله الذي يجعل عوف يتخذ المزيد من الاحتياطات، إلا أن جلو شبه متأكد مما في الكيس، في حضن عوف ولا يبدو أن وجهته ذاتية الشركة، فقد اطلع على محتويات كيس من هذا النوع في مرة سابقة.

ينهض ويتجه يمينا، يمر ببواب الفندق الجالس على كرسي من الخيزران، يسلم عليه ويسرع في سيرهِ لكي لا يستوقفه ويضيع عليه الوقت بالأحاديث، يشتري من بائع الكرزات نصف كيلو ومن محل الخمور بطل بيرة لبهيجة ونصف قنينة عرق سوري أبو الكلبجة له، ويدلف الى الزقاق. يتلقاه الزقاق المتعرج المقفر في هذه الساعة، كما يتوقع، بعكس الشارع العام، إلا من طفل لا زال يلعب أو صبية خرجت لتشتري لأهلها شيئا من المحل في ناصية الزقاق. في آخر هذا الزقاق يقع بيت بهيجة وهو منتهى الزقاق أيضا، وخلفه حديقة، البيت الوحيد في العرصة الذي فيه حديقة هو بيت بهيجة، ولهذا في قلبه وخياله معان كثيرة.

لو سارت الأمور ككل مرة لكان الآن يطرق الباب، طرقة اتفقا عليها، فإذا لم تفتح الباب له بل سمعها تقول «منو؟» عرف أن زوجها في البيت أو أن الظرف لا يسمح فيعجل بالإنصراف، وإذا لم تجبه على الطرق إطمئن الى أنها وحدها في البيت، وله وحده تلك الليلة. ليست وحدها تماما، سيجد تلك العجوز في مكانها من الحوش على الأغلب، ليست أمها ولا هي قوادتها، فبهيجة ليست من المبتذلات، تبتسم العجوز له مرحبة وتواصل تدخين سيجارتها بالمشرب الذهبي. قالت له بهيجة إنها امرأة فقيرة مسكينة آوتها في بيتها لتخدمها مقابل أن توفر لها بهيجة طعامها وكسوتها وما تحتاج.

تفْ... تفْ. لو أن الأمور لم تتعقد هذا التعقيد لكان الآن يحتسي أول كؤوس العرق الأطيب من مهيل جلو، والى جواره بهيجة ترتشف، من القنينة مباشرة، أول رشفاتها التي ستنتهي بها الى أحضانه وهي تموء بهياج مغرٍ كالقطة، هكذا كل مرة، وهكذا كان سيكون الأمر اليوم لولا.... اللعنة على المراكب، وعلى الأعطال، وعلى الانقلابات التي لا يعرف معنى لها، ولا يظن أن لها ميزة سوى تفجير جنون ذوي الأسنان الخائسة. لو يخف هذا الألم المتقد في

راحتيه. هاهو الآن في عزلة عن كل شيء، تتداخل الأشياء من حوله كلما أكد الليل حلوله وتتحول الى أشباح تنظر اليه متماوجة فيما أصوات الليل بصريرها المتذبذب تهبط عليه وتغلفه كالشرنقة اللزجة الكريهة.

******

- في هذا النوع من النقل النهري كانت المقطورة تسمى باللهجة العراقية الدارجة الدوبة وتجمع على دِوَب أو دوبات، وربما أطلق لفظ الدوبة على الكل، عليها وعلى المركب الذي يقطرها ولو كان منفردا.

نقطة تبادل التوابيت

عندما اتصل الوسيط بـ (تقي) قائلا له بأنه جلب جثة ابنه في تابوت وأنه بانتظاره في مكان قرب نقطة التفتيش على طرف المدينة كان هو في طريقه الى مرأب السيارات. كان الوسيط قد تقاضى مبلغا من المال لقاء نقل جثة ابنه الى مستشفى المنطقة واستخراج ورقة وفاة له، وقد طلب تقي منه في اتصال الأمس أن يكون موعدهما عند نقطة التفتيش لكي يضمن، بوجود الجيش قريبا، أن لا يتعرض الى الغدر هو أيضا. لكن كل محاولاته لإقناع سائق بمرافقته باءت بالفشل، فلما مل وقف جانبا ليدخن ويفكر قليلا.

ما أن أخذ نفسين من سيجارته وهو يجول بنظره فيما حوله حتى تذكر ما حصل له اليوم في دائرته، حيث يعمل سائق قاطرة، حين مر بطريقه عليها ليوقع طلب إجازة طويلة. في الواقع أنه، على مدى سنوات الخدمة الطويلة في الوظيفة، لقي من الرفيق الحزبي بارح محاربة تصل الى حد كتابة التقارير التي تودي بالمرء الى التهلكة لأن تقي مستقل وعلى شيء من الثقافة وتبدر منه أحيانا كلمات تشي بأنه غير راض عن نظام الحكم وقد وقعت بينه وبين بارح نقاشات حاول فيها بارح استدراجه الى تصريح واضح بمعارضته للنظام وكان تقي دائما يحسن التخلص من الفخ ما يزيد بارح حقدا عليه، شاهده تقي بعد سقوط النظام يعود الى الوظيفة حاله حال الموظفين الآخرين والذين تلقى كل منهم وجوده بينهم وكأن كل ذلك الانهيار الرهيب الذي حصل لم يحصل وظلوا كما كانوا كلما دخل غرفة موظف الإدارية حيث يجتمعون أوقات الراحة ينهض أحدهم عن كرسيه ليجلس بارح بالكِبْر نفسه، وظل كاتب الذاتية كلما حل يوم صرف الراتب يحرص على أن يقبض راتب بارح مع راتبه ويجلبه له وهو جالس في الغرفة، على كرسي كاتب الذاتية، يتنعم بهواء المكيف البارد. قال المهندس مانع لتقي ذات يوم همساَ وهو يبتسم "لا يستطيعون التخلص من خوفهم منه حتى بعد أن ذهب النظام الى غير رجعة ولم يعد لديه سند.... حزب أو غيره، ويستطيع أضعف واحد فيهم أن يمسح به الأرض، ولكن أحدا منهم لا يستطيع السماح لنفسه بمجرد التفكير بذلك".

في الواقع لم يكن تقي ممن يترقبون الفرص للانتقام ولا يرى في الانتقام تعويضا ما بل حاول أن يفتح بداية جديدة معه بتجاهل الماضي وليس أكثر، إلا أن بارح لم يكن من النوع الذي يخجل من ماض أو يعترف، حتى ولو في قرارة نفسه، بأنه ارتكب أخطاء، على الأقل، وليس التسامح الصامت الذي عامله به تقي إلا دليلا عند بارح على أنه المتفوق دائما. مع كل هذا الذي يعرفه تقي حق المعرفة لم يتوقع أن يقدم بارح على ما أقدم عليه، فما فعله يترفع عن فعله حتى الحيوان.

بعد أن صافحه كل واحد منهم وقالوا ما خطر على بالهم من كلمات العزاء والدعاء بحسن العاقبة تقدم بارح وعيناه تومضان وابتسامة لؤم على فمه الى وسط الغرفة حيث يقف تقي وصافحه وقال على مسمع من الآخرين:

-عسى أن يكون مقتل إبنك غفران ذنوب لك فقد كنت طوال حياتك لا تصلي ولا تصوم...

وكان ينوي الاستمرار لولا أن تقي حدجه بنظرة غاضبة جعلته يصمت وبان عليه ما يشبه القلق لأول مرة منذ ثلاثين عاما. لم يكن تقي لحظتها في ظرف يسمح له بالدخول في مشادة أو حتى في جدال. طاف بنظره على الوجوه، تظاهر الجميع بأنهم لم يسمعوا شيئا مبعدين انظارهم عن تقي وبارح. خرج تقي مغلقا الباب خلفه بعنف واستقل سيارة اجرة الى المرأب.

نظر الى يمينه منزعجا لهذه الخاطرة فانتبه الى وقوفه قرب سيارة بيك آب محملة بتابوت ورجل يقف عند باب السائق المفتوح قليلا، كأنه ينتظر أحدا. الرجل من جانبه، وهو ينتظر، لاحظ تنقل تقي بين السيارات والسائقين. سأله بعد قليل عن وجهته فلما أجابه تقي قال له:

- كأننا على موعد ! والله أنا ذاهب الى هناك.

نظر تقي بارتياب الى السائق ثم انتقل بنظره الى التابوت فقد سمع الكثير عن هذه الحيل وربما ضم التابوت في الحقيقة متفجرات والسائق بحاجة الى مغفل يصحبه معه لغاية في نفسه. سأله:

-فلماذا واقف أنت هنا؟ هل تنتظر أحدا؟

أدرك السائق شك تقي ففتح باب السيارة وتناول أوراقا تثبت أن الجثة في التابوت تعود لشاب قضي بانفجار عبوة. أخبره أن القتيل جاء لزيارة معارف وقضاء بعض الأشغال. نقل جثته، أو ما تبقى منها، بعض هؤلاء المعارف واستخرج له شهادة وفاة ولكن يبدو أنه لم يكن راغبا في المواجهة الصعبة مع ذوي القتيل فتملص بحجة أنه سيقضي حاجة ملحة ويعود، وترك السائق ينتظره، وأضاف:

- أريد أن أعمل إنسانية وأوصله مهما تكون النتيجة. لقد قبضت أجري مقدما والرجل وصف لي شكل الذي ينتظروني هناك وحرام علي أن لا أذهب لأن الجنازة أمانة برقبتي.

بدا له أن الرجل قلق مثله ويريد معه شخصا آخر يأنس بصحبته. لم يكن تقي خائفا من الموت بعد هذا العمر بقدر ما كان لا يريد التعرض الى مفاجئات تمنعه من دفن ابنه. لكنه ركب السيارة مع الرجل. بدأ يشعر، والسيارة تتجه نحو الطريق الخارجي، بارتياح حزين بعد يومين من الترقب والاتصالات بمن يأمل فيهم القدرة على الوصول الى حيث قتل ولده وترك مضرجا بدمه على الشارع العام مع ورقة معلقة برقبته تقول ممنوع تحريك الجثة من مكانها. كان ابنه قد ترك البيت بعد جدال معه نصحه تقي أثناءه أن لا يذهب بعد الى تلك المنطقة التي ولد وعاش طفولته فيها، قال له أنها تغيرت وليست المنطقة التي يعرف ويذهب اليها بين الحين والحين لزيارة أصدقاء طفولته، قال له أولئك الأصدقاء لن يستطيعوا حمايته حتى لو أرادوا، فقد سيطر عليها قتلة يعدون كل من يدخل اليها عدوا يستحق القتل إذا لم يكن مواليا لهم.

الآن هو جثة وفي رأسه تستقر رصاصتان أو ثلاث. فكر أن هذا أفضل ما يمكن أن يدبره لتخليص جثته من أيديهم. كان وهو يحدث نفسه يتلفت حذرا نحو البيوت التي تقع على جانبي الطريق السريع إذ ربما فوجئ وسائق سيارة (البيك آب)، الذي كان يتلفت بين الحين والآخر هو أيضا، بمجموعة من تلك المجاميع المسلحة المنتشرة في الضواحي تعترض طريقهما وتطلق النار عليهما وعلى راكبي السيارات الأخرى المسرعة في الطريق دون تمييز. بدا الوضع هادئا هدوء لا يبعث على الاطمئنان كما هو دائما. لكن... لم يبق إلا القليل. بعد نصف ساعة لاحت لأنظارهما نقطة السيطرة من بعيد. بحثت عيناه على البعد عن سيارة حمل كيا صغيرة متوقفة في مكان ما. أشار له السائق قائلا:

- ربما كانت هي تلك الواقفة عند محل الميكانيكي وقربها رجال ثلاثة...

وأضاف:

- وربما كان الرجلان الواقفان قرب بائع الشاي هما اللذان ينتظرانني.

رأى تقي ثلاثة رجال بالملابس العربية أحدهما هو الوسيط والآخر الصديق الذي كان على اتصال مستمر معه، وهو من أهل المنطقة، والثالث سائق لا يعرفه. كانوا ثلاثتهم يجلسون القرفصاء ويتجاذبون أطراف الحديث في الظل فلما عرف الوسيط أنه في السيارة أشار بيده اليه. استدار السائق بسيارته ونزل عن الطريق المعبد ليوقفها قرب السيارة التي تحمل التابوت.

فيما استقبله الثلاثة بحفاوة ومواساة توجه السائق نحو الرجلين اللذين كانا يحتسيان الشاي وقوفا قرب بائع شاي تحت سلم خارجي لبناية ورش التصليح وتحركا بدورهما نحوه حين رأياه يترجل من البيك آب. ثم كأن الجميع لم يعد لديهم ما يقولوه أو يفعلوه ران عليهم الصمت مطرقين. لم يستطع احتمال هذا الصمت والتفت الى التابوت. شعر أنه إذا لم يفعل شيئا سينهار باكيا، توجه نحو التابوت فتبعه الوسيط يحاول أن يمنعه مشفقا، تملكه القلق الذي شعر به وهو في الطريق وتوجس سببا آخر للانهيار، خشي أن تخذله رجلاه فلا يصل الى ولده. استجمع شجاعته واندفع كأنه يهجم على القلق ويزيحه جانبا. صعد ورفع غطاء التابوت. تمنى أن يجد ولده غير مغطى لكي لا يعاني حركة معذبة أخرى تؤخر الألم وتطيله فيعجز عن احتماله. لكنه كان مغطى فعلا ببطانية عتيقة حائلة اللون. تمنى أن يكون ما يراه وهما، وأن يكتشف أن الأمر كله مجرد خطأ من أوله الى آخره، وأن يكون هذا ليس ابنه كما يحدث في القصص التي سمعها عن الآخرين، وأن الجميع توهموا وما هذا إلا قتيل يشبه ابنه لا غير. لكن هذا التعلل سرعان ما أفلت من يده حين نظر الى القدمين الظاهرتين من طرف البطانية، انهما قدماه دون شك... بأصابعهما البيضاء الرقيقة، كأنهما قدما فتاة. هو ... هو... لا فائدة من خداع النفس. توسل ببقايا شجاعته أن تصمد معه وأزاح البطانية جانبا. طالعه الوجه الذي كان فيما مضى أبيض مدورا وقد استحال الى اسمرار شديد، وغطى الدم نواحي منه ومن الرقبة والصدر. تجنب النظر الى مؤخرة الرأس أو جانبيه، لم يكن يرغب في

رؤية مواضع ثقوب الرصاص بين الشعر المغطى كليا بالدم المتخثر. انزاح القلق والخوف عنه كالستار ولم يبق إلا الألم يحتك بنياط قلبه ببطء موجع وهو يتفحص ذراعيه اللتين، ككل جسمه، كانتا لا تزالان تحتفظان ببرودة الثلاجة التي حفظ فيها، ألم موجع وهو يرفع قميصه لينظر الى صدره وبطنه. كانت توجد كدمات وخدوش ... نظر الى الوسيط، فهم هذا نظرته المتسائلة فقال له:

– ليطمئن قلبك! ابنك مات بطلا فقد قاومهم بيديه العاريتين ولم يستطيعوا السيطرة عليه إلا بقتله.

لم يسأله كيف عرف فهو يقدر أن للأسئلة حدودا في هذه الظروف. في تلك اللحظة حبس دمعتين كادتا أن تسقطا من عينيه بأن أغمضهما وتمالك نفسه زاما على شفتيه. فتح عينيه بعد هنيهة ونظر مرة أخرى الى وجه ولده. رغم الدم المتخثر، رغم اسمرار الموت، كان ابنه كأنه نائم كما إعتاد أن يراه نائما فيما مضى بعينين نصف مغمضتين وفم مفتوح قليلا وقسمات هادئة. لكن الزمن كأنه توقف على وجه ابنه الآن.. في العينين المفتوحتين قليلا واللتين استحالتا الى كرتين زجاجيتين داكنتين فقدتا لونهما الكستنائي، كأنهما عينا سمكة، لامعتان من الدهشة والموت العنيد، والفم المفتوح قليلا أيضا كأنه سؤال مكمم عكر بياض الأسنان بالدم.

أحس بأيد تمسك به وتجذبه وصوت يقول له برفق:

– يكفي... انزل... قناص... قناص.

نزل ورجلاه تكادان تميدان لكنه تماسك. بدأ يسمع الأزيز وصار يركض دون وعي منه خلف السائق حتى صارا في ظل كتلة من الكتل الكونكريتية العالية. نظر وراءه ليعرف أين ذهب الآخرون فلم ير أين لاذوا. التفت الى جهة الشرطة والمفرزة العسكرية في نقطة التفتيش فرأى ضابط الشرطة بباب الغرفة المحصنة بيده جهاز الاتصال ينادي على جهة ما والجنود بعضهم داخل الهمر المضادة للرصاص والبعض الآخر حموا أنفسهم خلفها، والكل ينظر باتجاه البيوت الراقية الحديثة التي مر بها والسائق قبل أن يصلوا الى النقطة، بيوت بدت خالية من سكانها حين نظر اليها تقي وبعض نوافذها متضررة وبعضها عليه آثار حريق.

انقطع السير في الشارع ولم تعد تأتي سيارات من الاتجاهين، ويبدو أنه تم قطع السير من مكان ما.

سأل تقي السائق:

-ماذا حدث؟

-يوجد قناص على سطح أحد البيوت التي خلفنا.

-قناص؟

-نعم. هذه من الحوادث المعتادة هنا.

نظر تقي الى تابوت ولده والتابوت الآخر مفكرا في امكانية أن يصيبهما الرصاص وتململ قليلا فأمسكه السائق مسكة قوية من رسغه وقد خمن ما يريد تقي أن يفعل..

-إبق حيث أنت بربك فقد يصيبك وأنت في طريقك... على الأرجح هو لن يرمي على تلك الناحية.

-ولماذا؟

- لأن هدفه الرئيسي رجال الشرطة والجيش في النقطة. عندما تنسحب القوة التي هنا ليلا تصبح المنطقة تحت سيطرة المسلحين، ثم ينسحبون منها صباحا ويبقون يناوشون الجيش والشرطة بالرمي خلال النهار. إسمع.. لقد مرت الطلقة قريبا منا....

كان تقي قد سمع أزيز الرصاصة فعلا ورأى قدحتها وهي تضرب قير الشارع وتنفذ فيه

-لماذا جئنا الى هنا إذن؟ فلنعد الى حيث كنا!

-إبق... هنا أكثر أمناً خلف الحاجز الكونكريتي فأنت لا تدري ما قد يحدث.

نظرا من فسحة ضيقة بين قطعتي كونكريت فرأيا طائرة هليكوبتر قادمة من خلف الأفق متجهة الى البيوت وحامت فوق أحدها ثم أطلقت زخة رصاص على سطحه. قال السائق:

-لقد مزقت من على السطح تمزيقا.

لم يتحركا من مكانهما حتى شاهدا السيارات قادمة من الجهتين وانتظم السير كما كان. عادا الى حيث كانا وظهر الآخرون من بين محلات التصليح. تبعهما شرطي طلب فتح التابوت ففتح السائق له التابوت وقدم له الأوراق. نظر الشرطي فيها وأعادها اليه ثم التفت الى تابوت ولده ولكنه قال متذكرا:

-آ... لقد فتحناه ودققنا أوراقه.

وابتسم بارتباك مضيفا:

-الله يرحمهما.

وعاد الى السيطرة.

انتبه تقي الى السائقين يتحاوران بشأن التابوتين وكان من رأي سائق البيك آب، بعد أن قبل سائق الكيا أن ينقل التابوت الآخر معه، أن يجري تبادل التابوتين بما فيهما، وهو يقصد تجنب احراج إخراج الجثتين من تابوتيهما، وأن يكتفوا باستلام شهادتي الوفاة وبطاقتي هوية القتيلين وبعض الأوراق التي كانت معهما.

- لقد ذهبا الى رحمة الله، فما الفرق عندهما بأي تابوت كانا؟

اقتنع الجميع بهذه الحجة المنطقية التي أصابت تقي بالقشعريرة. تقدم بعض عمال الورش للمساعدة وتناقلوا التابوتين. أصرّ تقي على أن يجلس هذه المرة في الخلف عند التابوت، إذ كيف يجلس الى جوار السائق ويترك ولده وحيدا كأنه حمولة خضراوات أو حزمة خشب؟

أشار الخمسة بأيديهم إشارة التوديع فيما اتجهت السيارة عائدة به.

*

كتبت سنة 2007 ، ونقحت سنة 2020

تنويمة حرب

كان الحانوت في الأصل (كرفاناً) حديديا قديما، قدَّر داوي طوله بسبعة أمتار وعرضه بثلاثة أمتار وارتفاعه كذلك، نُصب في خاصرة تل وغُطي بالتراب فلا يظهر منه سوى الجانب الذي فيه باب وشباكان حيث يمكن شراء كوب شاي أو لفة فلافل، كما يمكن الجلوس في الداخل لتناول طبق طماطمٍ وبيضٍ مقلي أو أي شيء جلبه متعهد الحانوت من السوق إذ توجد منضدتان وبضعة كراس عتيقة مختلفة الأشكال والألوان، وتلفزيون هو كل ما يملك الجنود هنا في هذه الدنيا لقضاء الأمسيات يتفرجون على المسلسلات والافلام التي لا خيار لهم فيها ورأوا أن من الحكمة أن يقبلوها بوصفها مسرات.

تمشى متمهلا نحو الجنود الذين يتوزعون قرب الحاوية متشبثين بوهم أنهم في استراحة من الجيش مساء الجمعة ما داموا يسمعون صوت تلفزيون ويرتدون نعالا بدلا من الحذاء الثقيل. تناهت اليه من الداخل أصوات تبين من بينها صوت شعيب الموصلي يتفرج هو وجماعة معه على مسلسل ويعلق على الأحداث بحماس بين الحين والآخر "وي صب غايح ملعون...." ثم يتوعد الأشرار بعد قليل " أصبغوا أصبغوا... هساتينه يجيكم عبد الله غيث..." *.

وعند شباك المأكولات وجد تجمعا مرحا آخر يديره الجندي المخضرم بائع المأكولات (موحي أبو شوارب الصفر) والجندي المكلف (مهر) مراسل مساعد الآمر، ناعم الملامح كفتاة. الحقيقة أن شاربي موحي اللذين يغطيان كامل فمه لم يكونا هما الوحيدين اللذين لونهما من أشقاء اللون الأصفر فعيناه، اللتان لا يرى بهما أبعد من خمسة أمتار بوضوح، مثل كريتين زجاجيتين تلتمعان بلون برتقالي غائرتين في وجه يذكّر داوي بوجه مكسيم غوركي مبتسما، وأسنانه وأطراف أصابعه تصطبغ بصفرة تبغية من التدخين المتواصل:

-مهوري لماذا لا تأتي معي في الإجازة لآخذك الى البيت ونصعد الى السطح فأريك "الشادِيَّة" التي أضعها هناك في قفص؟

لا بد أن موقفا كهذا مرّ على مهر من قبل عشرات المرات فتعلم أن يقابله ببرود أعصاب وتعليقات ساخرة، وأحيانا، بالرد على الغمزة بغمزة مماثلة.

يلتفت موحي نحو بائع الشاي الجندي سمين، هكذا اسمه، وهو سمين حقاً :

-بشرفك سمين ما رأيك بالشاديّة التي عندي؟

فيجيبه سمين مبتسما وهو يصب الشاي لأحدهم:

-تخبل.

ويواصل موحي كلامه مخاطبا مهر:

-وأخليك تلعب بالبايسكل أبو الطواطات.... ماذا تريد بعد؟

يرد مهر عليه بتساؤل يثير موجة من الضحك:

-شاديّة؟ يا شاديّة... زوجة نايب ضابط شادي؟

وبينما ترتفع الاصوات بالضحك يتلفت أكثر من واحد حوله، خشية أن يكون رئيس عرفاء الوحدة نائب الضابط (شادي الديو) قريبا. كان داوي من بين المتلفتين وأكثرهم توجسا وتوقعا لرؤيته في أية لحظة يقوم بجولته التفقدية التي لا بد أن تشمل إثنين من منجزاته، هما الشاهدان على عبقريته، أولهما الحانوت فهو الذي استولى عليه من إحدى الساحات في بلدة كميت وأشرف على عملية نصبه، وثانيهما الحمام المبني بالصفيح والقائم فوق أرضية من الإسمنت المسلح ويسخن من حفرة في أسفل الأرضية بحرق النفط الابيض. ليس مستبعدا رؤيته يتجول بكامل قيافته وبيده عصا التبختر ليرى إن كان النظام على ما يرام ولا يوجد أحد يخرقه بإساءة السلوك أو بإحماء الحمام ليغتسل في غير اليومين المعينين اسبوعيا للاغتسال.

لم يكن تخوف داوي دون سبب خاص به، فقبل بضعة أيام التحق بالسرية بعد انتهاء الفترة التي قضاها هو ومجموعة من الجنود في مقر السرية الدائم في معسكر الرشيد. سلموا المقر

لوجبة جديدة من الجنود وعادوا جالسين بوجوم في الخلف في سيارة الإيفا التي انطلقت بهم مسرعة من بغداد الى العمارة وهي ترجهم رجاً وتصم آذانهم بقرقعتها المتواصلة.

كان قد ترجل للتو وانحنى لينفض عن بدلته غبار الطريق الترابي المتعرج الذي يخترق بادية چلات الى السرية، وإذا به يسمع من خلفه صوت شادي الجهوري المألوف:

-هلا بداوي.... أظننت أننا لن نلتقي بعد؟

اعتدل واستدار ناظرا اليه محاولا أن يرسم على وجهه ابتسامة اعتذار وأدى التحية بكل ما يمكنه من همة:

-سيدي...

سحبه شادي الى جانب ملجأ مقر الآمرية الذي يلبد مطمئنا في خاصرة تل آخر غير بعيد عن تل الحانوت، وقرّب وجهه الأبهق من وجه داوي:

-لا سيدي ولا غيره... هذه لا تنفعك هنا....على ماذا اتفقنا؟

-سيدي لم أحصل على خشب والله.

-لم تحصل على خشب... وأنت موظف في ساحة المخازن ولديكم جبال من خشب الطرويز العتيق**؟

لم تكن مجدية محاولة التوضيح وتكرار الاعتذار فشادي مقتنع بأنه خدعه لكي يدرجه في قائمة المعادين الى المقر الثابت مقابل أن يوصل الى بيته في ضاحية من ضواحي بغداد حِمْل سيارة من الخشب يستخدم وقودا للتنور. الحقيقة أن شادي هو الذي وضع هذا الشرط عندما راجعه داوي وفي يده أوراق طبية تثبت أنه يصاب بحساسية الأنف والعينين في فصل الصيف، وهو مرض لا يشكل سببا مقنعا لإعادة جندي الى المقر الثابت. حاول أن يوضح له أن الحصول على حمل من هذا الخشب من ساحة خزن تقع ضمن دائرة حكومية ليس ممكنا كما يتصور، ولكن شادي أصر على أن داوي يمكنه ذلك ما دام موظفا هناك، ولم يكن أمام هذا إلا أن يطرق صامتا وقد ظن شادي صمته موافقة. لكن ما دار في نفس داوي لحظتها بعيد كل

البعد عما تصور شادي إذ كان يتمايز غيضا وهو يفكر "طز بيه... هذا مخرف... وما الذي يمكنه فعله بي أكثر مما نحن فيه هنا؟ أذهب فأقضي ثلاثة أشهر في حدائق مقر السرية الغنّاء، لا رقيب ولا حسيب، نحتسي الخمر في ليالي الخفارات ونطرب على أغاني ميادة الحناوي وعزيزة جلال وغيرهما من الحسناوات، وإذا ما عدنا يحلها الحلّال".

غير أن استخفافه هذا كان له ثمنه. فيما أنزل الآخرون أفرشتهم وحاجياتهم من الإيفا همّ هو بدوره بإنزال فراشه فقال له شادي بحزم:

-أتركه في مكانه في الإيفا...ستذهب الى الخطوط الأمامية في أول مفرزة نقل عتاد.

هكذا احتجز فراشه برهانا على أن العقاب مؤكد. فكر داوي أن إرساله الى الخطوط الأمامية لا يختلف عن الحكم عليه بالإعدام بقرار من أهوج فاسد كشادي يمكنه أن يلغيه من الوجود لمجرد أنه يضع "موس" على ياقته. تظاهر بالهدوء واللامبالاة نكاية به وأخذ فقط حقيبته الصغيرة ليعلقها على كتفه ويستدير متوجها الى الموضع الذي تشغله الحظيرة فناداه من ورائه:

-هل شبعت هناك من قراءة "دق الجرس"؟

لم يجبه وتجاهل سخريته المتكررة التي تذكره باليوم الذي دخل فيه شادي الموضع فوجده يقرأ رواية لإحسان عبد القدوس. أخذها من يده وقرأ في الصفحة التي كان داوي يقرأ فيها "....ودق جرس التلفون فرفعت السماعة وأجابت بصوتها المخملي... ألو...". لم يعد الكتاب اليه بل ألقاه على كيس التجهيزات ضاحكا باستهزاء، ثم أخذ يردد " دق الجرس.. دق الجرس..." وهو ينحني ليخرج من الموضع. حمد الله وقتها لأن أحدا لم يكن حاضرا ليشهد سخرية شادي منه.

سمع وهو واقف خلف اللمة عند شباك الشاي الجندي عبد الكريم يخبر جنودا بأنه سيتم إرسال مفرزة الى الخطوط الأمامية غدا وأنه، عبد الكريم، من ضمن هذه المفرزة. فقد داوي الرغبة في شراء أي شيء من الحانوت أو الانضمام الى شعيب والآخرين. تمنى أن يكون

شادي قد نسي إدراجه في القائمة ومن الأفضل له أن يعود الى الموضع لكي يتجنب لقاءً قد يذكّره به.

وهو في طريقه عائدا على عجل أجفل عند سماعه صوتا بشريا الى جانبه فالتفت ليرى عبد الكريم ولم يكن قد شعر به وهو مشغول البال ...

-... ما معنى هذا يا داوي... كلنا في هذا الفصيل معاقو حرب... إن قرار لجنة شرحبيل بإعادتنا الى الخدمة هو من الأساس ظلم.

فكر داوي وهو يراقب ثعلبا يمرق سريعا خلف مواضع السرية ويختفي في وهدة بعيدة... كل مفرزة تذهب من فصيل الأشغال تعود وقد فقدت جنودا.. لأنهم هناك، في الخطوط الأمامية، لكي لا يفقدوا مزيدا من جنودهم برصاص القناصين، يغتنمونها فرصة فلا يستلمون عتاد الأسلحة الخفيفة عند نقطة الاستلام بل يأمرون المفرزة بحمل الصناديق الى الخط الأول... وقد يأمرون أفرادها هناك أيضا بالمشاركة في تقوية السواتر. ابتسم رغما عنه لمفارقة أن الجنود في الفصائل الأخرى، وحتى الضباط في الآمرية، يلقبون فصيل الأشغال بفصيل القناصين تندرا لأن أكثرهم عوران.. داوي نفسه أصيب في خدمته السابقة بشظية دقيقة في عينه اليمنى من جملة شظايا أصابته إثر سقوط قنبرة هاون على موضع ونفذت شظية منها الى كليته اليمنى فمزقتها وقام الجراحون باستئصالها.

-ما العمل يا داوي... ما العمل؟

استجمع داوي شجاعته ليسأل:

-من... من أبلغك بأنك ضمن المفرزة؟

-عبيس مراسل الآمر رأى الكتاب في القلم وقال لي أننا سننسب الى لواء 38 لمدة شهر..

ابتلع داوي ريقه بصعوبة فاللواء 38 معروف بأنه مُسْتَمكَن ويتعرض للقصف والقنص باستمرار. اللعنة على شادي.. لا يمكن أن يكون قد فاته إدراجه في مفرزة كهذه. لن يمض طويل وقت حتى يدور المبلّغ ليبلغ المشمولين بالتنسيب أو يُبلَّغوا في الصباح الباكر في ساحة العرضات. لكنه يعرف أن شادي لن يفوت متعة تبليغه بنفسه اليوم. سحب نفسا عميقا وغذ

السير نحو الموضع وعبد الكريم يتبعه بخطوة عرجاء سريعة منحني القامة ورأسه أمامه فيما عيناه المغلقتان تقريبا ترمشان في مسعى لرؤية أوضح. فجأة انحرف داوي في مسيره مبتعدا عن عبد الكريم:

-الى أين أنت ذاهب؟

-اذهب أنت... سآتي بعد قليل!

لكن داوي لم يأت الى الموضع بعد قليل بل ظل جالسا في ركن غرفة طينية خربة كانت فيما مضى لفلاح أو راع، جلس ينظر الى الشمس الغاربة تجلل بلون غروبها تعرجات التلال التي تتدرج من تلال صغيرة متباعدة كالتي نزلت عندها السرية الى تلال بوعورة الجبال تفصلها وديان عميقة عند خط الجبهة الأول. قضى وقته جالسا هناك، حتى بعد أن حل الليل، وأخذت أصوات المدافع النمساوية التي في الخلفيات تدوي وقنابلها تعبر السماء وبروق انفجاراتها ترتفع في سماء الجبهة ككل ليلة. خيّر نفسه بين أن يرضخ لما يكتبه عليه القدر أو ينهض ويمضى في الطريق الترابي تحت جنح الظلام نحو الشارع العام ليستقل سيارة عابرة نحو بغداد، ولكن قد يلقى القبض عليه في الطريق عند إحدى نقاط التفتيش لأنه لا يحمل إجازة، لا بل قد لا يصل الشارع أصلا ويقع في مكان ما فريسة لذئاب بادية چلات.

عندما قصد الموضع كانت المدافع النمساوية قد سكتت وانقضى من الليل ثلاث ساعات. نزل بترددٍ الدرجاتَ المحفورةِ بمجرفة ومعول في الأرض، وطأطأ رأسه قليلا ليتمكن من الولوج الى داخل الموضع دون أن يرتطم رأسه بإحدى العوارض الخشبية للسقف المكون من الصفيح المضلع المثبت من المحيط بأكياس التراب ومن الوسط بطبقة تراب سميكة تغطي مساحته كلها. رأى على نور مصباح نفطي، وُضع على صندوق عتاد ثقيلٍ فارغٍ في ركن الموضع المواجه لمن يدخله، جرمَ روضان الضخم والهيكل الهزيل لعبد الكريم على فراشيهما اللذين يكادان أن يكونا متلاصقين. لم يكن يوجد غيرهما في الموضع ساعتها. رأى كيف أن عبد الكريم يلتصق بروضان وهو يهز قبضة يده وقد أطبق سبابتها والإبهام، مكلما روضان بصوت هامس متوسل لا يستطيع داوي أن يفهم منه شيئا إلا أن روضان المتمدد على ظهره

واضعا يده اليسرى تحت رأسه دافعا بيده اليمنى يد عبد الكريم مرارا كان يرد عليه بكلمات هامسة رافضة زاجرة. سكت عبد الكريم عند رؤيته.

تجاهلهما داوي وبدا له أن أفضل ما يفعله هو أن يمد فراشا ويحاول النوم. توجه الى أفرشة الجنود الثلاثة المجازين واختار فراش هاشم لأنه واثق من نظافته. مده في مكان أقرب الى المصباح وقبل أن يستقر عليه دقق النظر في الحائط كما يفعل كل ليلة ففي الموضع الذي أقاموا فيه سابقا رأى مرتين على ضوء النهار عقارب بالغة الصغر تسير في طابور طويل على الجدار ومنذئذ صار يفز من نومه بين الحين والآخر لينظر الى ما خلف رأسه. ما أن تمدد حتى قال له روضان:

-أين كنت؟... جاء العريف عبد قبل مغيب الشمس وقال لي أن أبلغك بأنك ضمن المفرزة التي ستذهب الى المتقدم غدا وعليك أن تكون حاضرا في الفجر عند ساحة الآليات.

لم يجبه داوي ولم ينظر اليه.

بعد قليل عادت وشوشة عبد الكريم المتوسلة لتعكر الصمت داخل الموضع، وشوشة أكثر الحاحا، وهذه المرة لم يسمع من روضان زجرا، ولم تمض دقيقة أو أقل منها حتى أجفل داوي لسماعه حركة مفاجئة والتفت فإذا بروضان ناهضا على ركبتيه مواجها عبد الكريم الذي استجاب بسرعة لحركة روضان فنام على وجهه مسترخيا. حدق مندهشا وهو يرى روضان ينهال على عبد الكريم بقبضتيه بضربات لها صوت كدوي المدك حين تُدك به الأرض. بدأ من لوحي الكتف نزولا الى الردفين والفخذين ثم عاد صعودا بضربات لا على التعيين ختمها بجمعي كفيه على لوحي الكتفين بضربتين في وقت واحد خيل لداوي من شدتهما أن عظام صدر عبد الكريم قد تحطمت.

ظل داوي مستندا على مرفقه، فاغرا فمه غير فاهم معنى الذي حدث أمامه، ونظر مليا الى روضان الذي عاد كما كان على فراشه وهو يتنفس بشيء من التعب وظِل ابتسامة ارتياح على وجهه، بينما عبد الكريم بلا حراك كالغائب عن الوعي وقد انفتح فمه قليلا والتمع عند زاويته السفلى شيء سائل كالرضاب. إن روضان، برغم إصابته بانفجار لغم في ساقيه جعلته غير قادر على حمل شيء ثقيل أو الركض، يتمتع بقوة غير اعتيادية والجميع يتجنب مسكة

يديه الضخمتين حتى ولو على سبيل المزاح، ولا بد أن ضربه لعبد الكريم هذا الضرب المبرح قد آذاه. لماذا هذا الضرب؟

التفت اليه روضان كأنه سمع السؤال الذي يدور في نفسه:

-لا تقلق عليه... إنه الآن بمنتهى السعادة.... وسينام كالطفل الى الصبح.

تمتم داوي:

-ولكن....

-قلت لك ألا تقلق عليه.... سبق أن أكل مثلها مرات.

لم يستطع أن يتمالك نفسه عن السؤال:

-ولكن لماذا تضربه هكذا؟

عندئذ ارتسمت على وجه روضان تعابير الاستسلام لرغبة داوي في معرفة السبب فقال وهو يرفع بصره الى السقف:

-هو أراد... كل مرة يفعل هذا.... يلح ويلح.... هذا يحدث كلما كانت نفسيته متدهورة ولا يستطيع النوم. ربما تعرف أنه مثلك ضمن المفرزة التي تذهب غدا الى المتقدم...

وهز يديه بإشارة لا معنى لها:

-أنت ترى.... حاولت تجنب ضربه... كل مرة أحاول أن لا أفعل ما يريد.... ولكنه يلح ويلح.

والتفت نحو داوي:

-في النهاية أشفق عليه.... لا مفر من أن أسهل له النوم. الضرب عنده في هذه الحالة كالتدليك يجعله ينعس ويغط في النوم.

وبعد أن صمت لحظة:

-لكن كما قلت لك.... لا تقلق عليه.

-لم أشاهدك تضربه من قبل.

ابتسم روضان ابتسامة عريضة:

-لم يصادف وجودك وأنا أضربه.... في الحقيقة لم أكن أضربه أمام أحد. لكن هذه المرة..

وكرر قائلا:

-لكن لا تقلق... لا تقلق.

في تلك اللحظة لم يعد ما يشغل بال داوي هو قلق بل تعجب. لأول مرة يرى شخصا لا يستطيع النوم إلا إذا أشبع ضربا. صحيح أنه يعرف، في عالم الأطفال، حين يقسو أحد الأبوين على طفله فيضربه يظل هذا يبكي ثم قد ينام مهضوما مقهورا... لكن.. هز رأسه غير قادر على تعليل مقبول لما رأى واضطجع من جديد بعد أن أطال النظر الى عبد الكريم الهامد على وجهه والى روضان الذي استدار نحوه وشبك ذراعيه على صدره كعادته حين يريد النوم وأغمض عينيه.

إن عبد الكريم نائم الآن... ولو بالضرب.. على الأقل نائم. لكن كيف سينام هو؟ لا فائدة من البقاء مستيقظا طوال هذه الليلة الشتوية والتفكير فيما سيحدث له في غد وفيما بعده. أغمض عينيه، حاول أن يسترخي، أن ينحدر الى أرجوحة النعاس..... وجد نفسه بعد قليل يردد في سره "دق الجرس.... دق الجرس.... دق الجرس......"

تشرين 2019

::::::::::::::::

*باللهجة الموصلية تعني "الى أين ذاهب يا ملعون" والعبارة الثانية "أصبروا أصبروا الآن يأتيكم عبد الله غيث".

**خشب الطرويز خشب قوي يوضع تحت سكة القطار.

إبتسامات المصور اللطيف

خرج من محل التصوير ووقف موليا ظهره الى الواجهة الزجاجية. وضع سيجارة بين شفتيه وأشعلها ثم أعاد العلبة الى جيب سترته وهو يستمع بامتعاض الى المصور في الداخل يتبادل الحديث مع صاحبيه. بدا له المصور لطيفا لطفا لا يطاق، يردد كلمات مثل " عيوني" و"قلبي" و"حبيبي"، يرددها كثيرا، مع كل جملة، يقولها وهو يقلب أوراق المفكرة ذات الغلاف الجلدي، يقولها وهو يكتب الإسم والتاريخ في المفكرة، يقولها وهو يدعو لصاحب الإسم بالستر والموفقية والسلامة، ويجيب على كل إستفسار بجملة تنتهي إما ب "عيوني" أو ب "قلبي" أو ب"حبيبي" أو بها جميعا.

ترك صاحبيه يرتبان معه شؤون تصوير ما قالا أنها حفلة زفاف غدا، أما هو فقد أخذ ينظر الى نقطة السيطرة المشتركة للجيش والشرطة على مبعدة مئة متر دون أن تتغير تعابير سحنته المكفهرة خلف غلالة من الإمتعاض الساخر وهو يفكر "هل هذه تمنع؟ لو جاءت السيارة المفخخة فلا راد لها، تجعل كل هذا الصخب نثارا متفحما"، وسرعان ما ذابت الإبتسامة وسط جمود ملامح الوجه مخلفة شحوبها على الشفتين.

المصور من جانبه، بحكم إهتماماته التي تجعله شديد الإنتباه الى التفاصيل والأشكال والملامح، لم يكن ليفوته وضع الرجل غير المريح برغم إنشغاله بإداء الواجب الذي تمليه عليه مهنته كمصور ذي براعة حنكته عشرات السنين من ممارسة التصوير الفني بأنواعه وتعدت سمعته حدود بغداد الى المحافظات الأخرى فيستقبل منها أحيانا كثيرة زبائن وسط الأستوديو الذي غطت جدرانه صور بعضها مستنسخ عن أعمال أساتذة التصوير العراقيين الأوائل أضاف اليها من عنده لمسات زادتها جمالا ووضوحا، وبعضها صور لملوك العراق ولعبد الكريم قاسم، والصور التي التقطها هو لأماكن وأناس من بغداد ومن مدن أخرى، ونساء جميلات من أعمار مختلفة تعبر صورهن، في تسلسل مقصود، عن جماليات سن كل منهن، الطفولة والصبا وسن العشق والأمومة والشيخوخة الحانية، فيما خصص الجدار الذي وضع عنده مكتبه للصور

الشخصية الملونة وغير الملونة من إبداع عدسات كاميراته التي تعود لأزمان وصناعات مختلفة تتوزع في زوايا المحل وفي الغرفة الخلفية على رفوف خاصة. تحت زجاجة المكتب يرى الزائر صورا بالقياسات الصغيرة. في واجهة المحل تشكيلة صورية من هذه الأنواع كلها بعنايةِ عرضٍ خاصة مضاف اليها حوض زجاجي فيه نافورة مصغرة تدور حولها أسماك زينة بالغة الصغر زاهية الألوان، وفي وسط الماء معلقة بسلك كالنشرة صور دقيقة من صور الأستوديو الشخصية مكبوسة داخل طباقات زجاجية دائرية شفافة تنعكس عليها ألوان نشرة أخرى ضوئية تومض فوق الحوض، وأمام الواجهة، في المنتصف على الأرض، مزهرية امتلأت بزهور بنفسج الثالوث على قاعدة مزخرفة من المعدن الرصاصي اللامع، حيث وقف الرجل.

ربما كان لطف المصور سياقا اعتمده في بداية سيرته المهنية لجذب الزبائن وإعطاء صورة مُرْضية عنه في نظر الناس، وبمرور الزمن تحول اللطف الى خصلة أخلاقية ثابتة لا يكاد يخلو منه تصرف، حتى في المأكل والملبس، ولا تخلو نهاية جملة أو بدايتها في كلامه من مفردة من هذه المفردات التي أصبحت موضع تندر جيرانه وأصحابه في غيابه، وحتى في حضوره أحيانا على سبيل المزاح. أصبح اللطف علامته المميزة، لا بل هو في نسيج شخصيته كلها، مبثوث في كل سلوك، وشيئا فشيئا انطبع اللطف على ملامح وجهه، ففي العينين الصغيرتين ترى تلك النظرة المستدرة لإعجاب الآخر أو استرضائه، وعلى الشفتين تلك الإبتسامة التي تشع قليلا أو كثيرا، وتتسع أو تضيق حسب المواقف، ولكنها أبدا لطيفة لطف النفس الملبي لمطالب الآخرين والمسرع لأهوائهم كي يجعل منها تحفا فنية. انضاف الى ذلك في تلك السنوات، التي قد يُقتل فيها المرء لأتفه الأسباب ولا يمكن التمييز بين أخيار الناس وأشرارهم، سبب مسوغ آخر لأن يكون أكثر لطفا هو اتقاء الشر. كان من البديهي والحالة هذه أن يكون رد فعله إحباطا حين قوبل كلامه اللطيف وابتسامته الداعية للتعاطف بتقطيب نابذ من وجه بدا له أن كل ما فيه مثال للجفاء وإنعدام الرحمة عندما وجه كلامه اليه.

لو حدث هذا في غير هذه الظروف لأثار فيه فضوله الفني، ولكنه في تلك اللحظة أثار فيه أشكالا من المخاوف حاول تجاهلها وهو يوجه حديثه الى الرجال الثلاثة ويجيب على أي سؤال مبقيا ذا التقطيبة ضمن دائرة إنتباهه يلاحظه بطرف خفي حتى بعد أن استدار وخرج

بفظاظة ليقف خارجا ويلتفت الى الداخل بين الحين والآخر بنظرة مسترقة يراها المصور مريبة فإذا حدث وتلاقت عيونهما أحس كأن الرجل يزيد تركيز نظره عليه للحظة ثم يشيح ببصره.

أصبح لكل حركة تبدر من الرجل ما يقتضي من المصور الإنتباه وإستشفاف المعنى، أو بتعبير أدق، إستشفاف النية، وعندما رآه يمد يده يبحث عن شيء تحت سترته انتابه قلق لم يفارقه الى أن شاهده يخرجها بمحفظة أخذ يفتش فيها عن شيء. ولماذا لا يقلق وموجات القتل المنظمة لا تزال ظاهرة من ظواهر الواقع اليومي؟ فقبل أشهر شاع قتل الحلاقين، وقبلهم الأطباء، وقبل أسبوع قتل في حادث غامض مصور من معارفه في مدينة أخرى وبعده بيومين اختفى مصور آخر، فلماذا لا يكونون قد شرعوا الآن بقتل ما يستطيعون قتلهم من المصورين، وهذان الرجلان يلهيانه بحديث أكثره ثرثرة وأسئلة لا ضرورة لها ويعطيانه معلومات غير صحيحة بينما يقوم ثالثهم بالتأكد من الوقت المناسب فيعطيهما الإشارة أو يدخل هو ليطلق بنفسه عليه الرصاص من مسدس كاتم للصوت، ويلوذون بالفرار.

لم يتخل المصور عن ابتسامته وإن اصطبغت الآن بدكنة القلق، ولم يشرد ذهنه عن مفرداته المهذبة المعتقة باللطف، وإن بدا هذا اللطف غير واثق من جدواه هذه المرة، والإبتسامة متوجسة. تحرك الرجلان للإنصراف. أصبحا خارج المحل فإستدار صاحبهما ليتبعهما بعد أن ألقى بعقب سيجارته في مجرى ماء.

شعر بالإرتياح لإنصرافهم ولكن في اللحظة التي أخذ يميل فيها الى التفكير بأنه قد أسرف في شكوكه التقت نظرته بنظرة الرجل لآخر مرة، ابتسم له المصور ابتسامة هي مزيج من التسامح والتزلف غير أن الرجل، وبنفس التعابير المتصلبة، وجه اليه نظرة معبرة عن الحنق المصحوب بإيماءة رأس خفيفة لا تكاد تلحظ. لا يدري المصور بماذا يفسرها، أهي حركة لا إرادية من حركات الأشخاص المصابين بداء الكره للآخرين الذي يميز القتلة والمجرمين أو المعتلين نفسيا، أم ماذا؟

رجع الى كرسيه وهو يشعر بإرهاق لم يكن يشعر به قبل قليل وبضغط يعتصر صدره وبارتخاء في مفاصل ساقيه يكاد معه أن يعجز عن السير وتتعثر قدماه الواحدة بالأخرى. لكنه ما أن استقر على كرسيه حتى هب مذعورا، وقد دبت فيه نوبة نشاط مفاجئ، وتوجه الى حيث كان

يقف الرجل أمام الواجهة، فتش عن أي شيء غريب أمام المحل أو قربه على ناصية الشارع الفرعي فلم يجد ما يشتبه في كونه عبوة ناسفة. نظر في الإتجاه الذي ساروا فلم ير لهم أثرا. عاد شاعرا بقواه تخور من جديد ليجلس وهو يلوم نفسه لأنه لم يراجع الطبيب المختص بالقلبية قبل أسبوعين على الموعد الذي حدده له عند المراجعة الأولى. ها هو قلبه يخفق بسرعة والألم في الصدر يشبه الذي أحس به سابقا، وأكثر وخزا. لماذا لا يعترف أنه أصبح عجوزا، عرضة لشتى الأمراض، ولم تعد أعصابه تتحمل مواجهة المخاوف والأزمات التي تضج بها الحياة هذه الأيام؟

فيما كان يفرك جبهته بيده اليمنى وقع نظره على المفكرة التي لا تزال فوق زجاج المكتب حيث سجل الموعد ومقدار المبلغ المستلم. الموعد غدا في منطقة أخرى وقد دفعوا له ثلث الأجر مقدما، ودون أن يساوموه أو يجادلوه. ماذا لو كان الأمر كله استدراجا له؟

ولماذا يستدرجونه هو بالذات؟

كشر ساخرا من نفسه لهذا التساؤل... "كثير من القتل هذه الأيام لا يحتاج الى سبب. المهم هو القتل."

يا للمفارقة... أجال ببصره في الصور المؤطرة بأطر خشبية كلها بلون أبنوسي موزعة باهتمام شغوف. عمله كله... طوال حياته... هو الإبقاء على الأشياء حية، وإحياء الميت على نحو ما، ولو على ورق الصور اللامع السميك. إذا حافظ الإنسان على الذاكرة يكون الموت مجرد جانب واحد من الحقيقة وليس الحقيقة كلها. هذا هو ما فكر فيه منذ أن وعى قيمة التصوير الفوتغرافي. حين صور ذلك الشخص السائر ضاحكا في انهمار المطر أو تلك المرأة التي تحمل طفلا في متنزه أو ذلك الفتى وتلك الفتاة اللذين يجلسان متباعدين على المسطبة الخشبية ولكن نظراتهما المختلسة الخفرة المتبادلة تنبئ أن لا مسافة بينهما وأنهما قريبان حد الإلتصاق، فقد حفظ لهؤلاء كلهم حياة أخرى قابلة للإستمرار الى ما لا نهاية. والآن هو حائر كيف يحافظ على حياته.

راجع كل تفصيل منذ أن دخلوا عليه المحل، كل حركة، كل جملة قيلت وكيف قيلت، والمبلغ الذي دفعوه، والرجل المتجهم، ثم انصرافهم، ولكنهم ربما لم يذهبوا بعيدا. هل يتفقون، بعد أن

يدرسوا الوضع، على العودة لقتله؟ ولكن إذا كان هذا هو ما يريدون فلماذا لم يفعلوه ببساطة بلا هذه المقدمات؟ أحاديث، وتسليم نقود، وموعد. لا....لا... قتلة من هذا النوع لا يخططون بهذه الطريقة. إنهم يدخلون، يطلقون النار، وينصرفون.

لكن خطة استدراجه معقولة وإن كانت لا تزال تحيره إذ يوجد دون شك مصورون في منطقتهم أو قريبا منها فلماذا يتجشمون عناء المجيء الى مصور بعيد ليتفقوا معه على أن يصور لهم بالفيديو وبالصور الفوتوغرافية حفلة زفافهم. هل سمعوا بمهارته في التصوير مثلا؟ يا له من تفسير سخيف! يبدو له كل تفسير سخيفا وفيه شيء غير ملائم للواقع. لأول مرة يرتبط فيه تفكيره بمهارته الفنية، بدلا من الفخر كالعادة، بإحساس بالسخف. بدأ قلبه يخفق بشكل غير منتظم. لماذا لا يذهب الى البيت، يستحم ويلبس دشداشته البيج الجديدة ويجلس في مستطيل الجنينة الصغيرة، التي زرعها وسيجها أمام الدار، واضعا حفيده الصغير في حضنه يداعبه ويرقصه وربما جاء واحد أو إثنان من جيرانه للجلوس معه كما يحدث غالبا؟

هذا هو الحل المناسب، وإن كان لا يقضي على قلقه، ولكنه قد يشغله عنه الى أن... الى أن ماذا؟ فليترك الأمر الآن.

الوقت عصرا وظلال البنايات تغطي الشارع الواسع. لن ينتظر إبنه ليقله بسيارته.نهض بصعوبة. أخرج المفاتيح من جيبه وتوجه نحو الباب دائخا سارح الفكر. إنه مرهق ونفسه تميل الى أن يبقى غدا صباحا في البيت. سيأخذ استراحة، لن يفتح المحل غدا صباحا ولن يقف ككل مرة بالباب يشعر بأنفاس الصور المكبوتة تندفع نحوه مرحبة شاكية من قضاء الليل وحيدة فيدخل اليها مسترضيا بابتسامته الخاصة بها التي لا يشرك شيئا آخر فيها معها والتي يكون بها مختلفا، ابتسامة الفخر، من مبدع الإنبهار ببلورات الضوء، وكما لو أنه فكر أن قسطا من الراحة والعيش بضع ساعات في جوه العائلي الوادع ستجعله يكتشف أنه مر بحالة ضعف سمح فيها لنفسه أن يسقط في مخاوف لا أساس لها فيعود لفتح المحل ظهرا ويهيئ للموعد الحقيبة التي يضع فيها الكاميرا الفوتوغرافية وكاميرا الفيديو والأقراص. ولكن لو أن شخصا يعرفه وصادف أن رآه لحظتها لقال لك فورا أن شيئا غريبا أصابه فهذا بالتأكيد ليس هو الذي يعرفه لسنوات طويلة، المرح ذو الوجه الباسم والذي يحافظ على قدر من حيوية الشباب برغم بلوغه الستين، ليس هو هذا الذي يتحرك كالسائر في نومه.

وضع المفاتيح في جيبه بعد أن أقفل المحل تاركا المزهرية خارجا هذه المرة بخلاف المعتاد. عندما انعطف في سيره الى الشارع العام انتبه الى أنه متوجه في نفس الإتجاه الذي ذهب فيه الرجال الثلاثة. توقف، كان واضحا له أن الإلتقاء بهم مرة ثانية في تلك اللحظات سيكون أكثر مما تتحمل أعصابه. نظر الى الأمام، الى أبعد ما يستطيع، محاولا أن يراهم من بين الناس الذين بدأوا يملأون الشارع بحركتهم. التفت الى الخلف نحو نقطة السيطرة، فكر أنه من الأفضل أن يذهب في اتجاهها ويتجاوزها ومن هناك يعبر الشارع الى الجهة المقابلة ليستقل سيارة أجرة. أشعرته هذه الفكرة بنسمة من الأمان إذ يكفيه الآن ما يلاقيه من وساوسه التي يخشى أنه لن يرى إلا ما تتراءى فيه، فها هو يراوده إحساس بأنه قد نسي شيئا، أو لم يول شيئا انتباها كافيا، أو ترك شيئا مهما خلفه، وكلما ابتعد عن المحل ألح عليه هذا الهاجس وأخذ يبطئ من سيره. مر به شخص سلم عليه ولكنه لم يجبه وهو في غيابة التفكير بما قد يكون فاته الإنتباه اليه، وخاطبه طفل كان يوزع التحايا على كل من يمر به وهو برفقة أمه التي تزجره وتجذبه اليها.. "هلو عمو"! ولم يلتفت اليه حتى.

شيئا فشيئا تتكون في ذاكرته نقطة عصية على تركيزه، تتحرك، أولا في فضاء غير محدد، ثم تلوح له حولها ملامح من داخل المحل، تفاصيل غير مكتملة، أطر سفلية، ثم تتحدد له تدريجيا صورة الفتاة الناظرة الى ما هو أوسع وأكثر إرتفاعا من السماء وهي تنادي الفرح . هناك الى الأسفل منها يبدو ما يبحث عنه، بدأ يتبينه شيئا فشيئا. وفجأة يدرك ما فاته. كان أحد الرجلين يحمل شيئا على شكل علبة مستطيلة صغيرة مغلفة بغلاف بلاستيكي. هل كان لا يزال يحملها حين انصرفوا أم اغتنم فرصة خاطفة ووضعها خلف الحقيبة؟ أجل... هو الآن يتذكر أنه لمح، قبل أن يخرج، شيئا قرب الحقيبة له هذا الشكل بين المكتب والجدار، وكما تتضح صورة صادمة بعد التحميض، تراءت له هناك، جوار الحقيبة وبلون مقارب، في الزاوية، تحت صيحة الأمل الأنثوية القافزة عاليا، وإرتعد جسده كله وهو يتخيل الإنفجار يلتهم بلهبه، في لحظات، كل أناسه الذين أكسبهم جمالا أراده أبديا، ولأول مرة يدرك هشاشة هذا الجمال المنبسط على سطح ورقي، ليس أكثر من ورق داخل إطار هو الآن الوقود الجاهز للهب الجمال الفاني في نار الدمار البشري، فيلوب شفقة. توقف وأخذ يتحرك حركة مترددة عاجزا عن اختيار وجهته، يمينا أو يسارا، وهو يقول كلاما حاول أن يجعله صرخة، ويحرك يديه

حركة الثاكل، قريبا من الجنود المرابطين في النقطة: "ستحترق كلها... سيحرقونهم!". فوجئ أقرب الجنود واستدار بسرعة نحو الرجل الذي سقط أرضا. حين تجمعوا حول الجسد الهامد كانت ترتسم على الشفتين ابتسامة أخيرة... ابتسامة آسفة متفجعة.

نيسان 2018

بلا أسماء

-ما الذي جعلك تفعل هذه الفعلة يا أخي؟ أتحب أن تتمرغ بدماء القتلى؟ ألا ترى غيرك من كُتّاب القصة؟ يتجنبون ذكر أي اسم أو دلالة واضحة يمكن أن تجلب لهم المتاعب في زمن يمكن أن يقتل فيه المرء بكل بساطة فيلوذون، مثلا، بأحداث تاريخية موغلة في القدم أو يبتكرونها ويقولون توظيف، أو يذهبون الى ما وراء السرد... لو كنت أرسلتها الى مجلتنا لنصحتك بعدم النشر.

- هل يمكن أن توجد قصة بدون أسماء لشخصياتها؟ لقد وضعت اسما له دلالته هو عبارة عن تركيبة غريبة للشخصية الرئيسية وما أدراني أن شخصا يمكن أن يوجد بهذا الاسم الغريب؟

-وفوق ذلك ألصقت به صفتين... قواد وقاتل. ووضعت توقيعك على هذا كله!

-هناك من أخبرني بعدما حدثت المشكلة أنه فعلا قواد وقاتل، وله جماعة من صنفه يحيطون به ويدعي أنهم عشيرته.

-حلو!

خرج الكاتب وصاحبه المحرر من الزقاق الذي دخلا فيه قادمين من الشارع الصاعد الى جسر الشهداء نحو شارع المتنبي وأخذا يتمشيان وسط الناس المتنقلين بين بسطات الكتب. قال المحرر متذكرا:

-قل لي.... هل قدمت شكوى؟ قد تنفعك.

هز الكاتب يده بيأس:

-نعم.... ولكن.....

-ماذا قال لك الضابط؟

-إنه شخص لطيف. استقبلني وأوضح لي أنه لا يمكنه وضع حراسة دائمة علي لحمايتي. حتى لو رفعت الشكوى الى القاضي سيقرر كالمعتاد تبليغ المتهم للحضور أمامه وما الى ذلك...

-يعني؟

-يعني... نصحني أن أفعل كما يفعل كل الناس الآن. استغلال الوقت وعقد جلسة عشائرية للصلح ودفع مبلغ الفصل... سيكون هذا كما قال أسرع من أي إجراء حكومي.

-هل أنت مستعد لهذا؟

تجاهل السؤال وواصل حديثه:

-كان أصعب ما في مقابلتي معه هو شرح القصة له. لخصتها كما يلي... كاتب يكتب قصة عن شخص شرير متخيل ويظهر أن هذا الشخص موجود فعلا ويقوم بتهديد الكاتب بالقتل إن لم يجمع أقرباءه ويحضروا جلسة الفصل لكن الكاتب يرفض ويقول لو أن كل كاتب كتب قصة فيها شخصية شريرة فإن أي شخص يشابه هذه الشخصية بالاسم وتتطابق واقعة من حياته أو وقائع مع أحداث في القصة يمكنه الاستعانة بأقربائه ويجبر المؤلف على دفع فصل وستكون سُنّة تتبع وحجة للابتزاز .

-ماذا كان انطباعه عن القصة؟

-هز رأسه وقال "حقا إنها قضية لم أصادف مثلها من قبل.... وأنت الآن المهدد مثل بطل قصتك. نرجو أن تكون نهاية مشكلتك أفضل من نهاية قصتك ولا يتعرض بيتك الى الرمي بالرصاص وعائلتك الى الأذى". هذا هو ما قاله.

استوقف المحرر الكاتب فجأة ليسأله:

-لم أسألك عن هذا الرجل الشرير. هل هو جارك؟

ضحك الكاتب :

-لا يسكن منطقتي أصلا ولا يقرأ المطبوعات. يسكن في حي مجاور.

-فمن أين علم بأمر القصة؟

-من أحد شياطين الوسط الثقافي الذين عوضوا فشلهم في الإبداع بالبراعة في إلحاق الضرر فيمن يرون أنهم أفضل منهم إنجازا، يسكن في نفس الحي الذي أسكنه ويعرفه فأخذ له نسخة من الجريدة وقال له هذه القصة عنك ودله على البيت.

-وما أدراك؟

-عرفت هذا من قرائن معينة ولكن لا دليل عندي.

-ومن هو هذا الشيطان الثقافي؟ أخبرنا بإسمه بربك حتى نتجنبه!

-الذي كان جالسا بجانبك في القاعة عندما حضرنا الندوة الأخيرة.

فغر المحرر فمه وتمتم:

-لعلك تقصد....

هز الكاتب رأسه مؤكدا:

-هو بلحمه وعظمه.

لم يقض الكاتب الوقت الذي كان يقضيه كل مرة في شارع المتنبي بل عاد وهو نهب للقلق على بيته الفارغ الآن بعد أن طلب من عائلته أن تترك البيت الى بيت أهله القديم تحسبا لما قد يحدث. عندما أصبح الشارع الذي يقع بيته فيه على مرمى النظر وهو جالس في سيارة الأجرة عرف من تجمع سيارات عند الشارع أن شيئا غير مريح يحدث ولم يلبث أن سمع صوت رمي كثيف بأنواع الأسلحة الخفيفة من أناس جاءوا ليستمتعوا بإطلاق الرصاص على جدران بيت يلذ لهم تصور أن العائلة التي تسكنه أسوف يصيبها الذعر فتقذف المرأة المذعورة وأطفالها أنفسهم في أحضان بعضهم بعضا تحت الدرج وهم يتصارخون وأن رب العائلة، إن لم يكن قد دس نفسه في حضن زوجته، فإنه يدور خوفا من غرفة لغرفة و يفرك يديه حيرة، وسيسارع الى الخروج اليهم خانعا ذليلا.

عندما نزل من السيارة كان إطلاق النار قد انقطع. استدار السائق بسيارته بسرعة ليبتعد بها عن المكان. اقترب الكاتب من التجمع البشري وتلفت فلم يتعرف على أحد ولم ير أيا من جيرانه. البيوت مؤصدة الأبواب أما بيته فقد أصابت إطلاقات ستارة سطحه وثقبت أخرى الباب وحطمت زجاجات نافذة المطبخ العليا.

جذب انتباهه الرجل الذي لا يزال يهوس وسط التجمع مرددا أبيات الفخر. لم يستطع منع نفسه من النظر بشيء من العجب الى الرجل وهو يرفع قبضته عاليا لافظا كلمات الهوسة بصوت عال منغم وبعدها ينحني حتى تكاد يده تمس الارض فيما يضم عباءته بيده الأخرى الى صدره، وفجأة يضع يده على رأسه لكي لا يسقط العقال ويقفز قفزات متوالية بالغة العلو بالنسبة الى قامته القصيرة الهزيلة تمس في أثناءها قدماه ردفيه. رأى الى جواره شخصا ضخم الجثة حاسر الرأس يرتدي دشداشة وجاكيت بلون واحد يتحرك حركات مشجعة له. وجد نفسه يشق طريقه بين الناس وقد أزاحت خوفَه الرغبةُ الجارفةُ بأن يكون وجها لوجه أمام هذين الرجلين اللذين يبديان أشد الحماس في التهديد والتحريض وهو لا يشك في أنه لم يعرفهما من قبل، لا بل لم يرهما أصلا، ناهيك عن أن يكون قد حصل بينه وبين أحدهما مجرد خلاف. كان يريد أن يسألهما بإلحاح ما هو الجرم الذي ارتكبه ليستحق هذا التعدي خصوصا وأنهما كما يبدو المحركان للحملة على بيته والأكثر اندفاعا. لكنه حين صار في مواجهتهما، بينهما وبين الشبان الثلاثة أو الأربعة الذين يحملون البنادق ولا زالوا مولين وجوههم ناحية الدار، عقدت الدهشة لسانه ووقف يحدق في وجهين يعرفهما جيدا، فكيف لا يعرفهما وصاحباهما هما اللذان شغلا باله ليلَه ونهارَه في الأيام الماضية حتى أفسدا عليه حياته وحياة عائلته. لم يكن المهوال سوى المثقف الواشي في القصة، لا شك عنده فملامح الوجه هي الملامح السمراء القاتمة نفسها وقد حدجته العينان السوداوان بالنظرة المتربصة المألوفة ذاتها، أما الآخر فلا نغالي إذا قلنا أن رؤيته أفقدت الكاتبَ صوابَه فلو قيض له أن يتمثل الشخصية التي رسمها في قصته بشرا مجسدا لما استطاع أن يتخيله بهذا التطابق مع شخصية المجرم المرسومة بالقلم.......

16 آيار 2020

سُمْرة أليفة

بعد تجوال في المدينة اخترت شارعا بدا لي أنه مناسب وأن العراقيين نادرا ما يمرون به. يمكنك أن تعرف العراقي من مسافة بعيدة فوجهه ذو ملامح لا تخطئها العين ويوحي بإلفة فريدة ربما بسبب سمرة خاصة أو حتى من المظهر العام. لكن هذه الإلفة الفريدة هو ما سعيت لتجنبها ذلك اليوم خجلا من أن يراني أحد معارفي واقفا أمارس عمل البائع المتجول.

هنا لن يراني أحد. هكذا قلت لنفسي وأنا أخرج من حقيبتي ست ساعات. وضعت ثلاثا على الحقيبة فيما حملت ثلاثا على راحة يدي. كنت قد اتبعت نصيحة صديق فاشتريتها كما اشتريت أشياء أخرى سهلة الحمل بقصد بيعها بسعر أعلى عند وصولي الى عمان لأستعين بثمنها. وقفت طويلا دون أن يسألني أحد من المارة عن سعرها بل كانوا ينظرون إلي نظرات عابرة، وبمرور الوقت بدأت أحس بالتعب من الوقوف ومن الجوع أيضا وبدأت أراجع حساباتي، فبعد أن منيت النفس ببيع الواحدة بخمسة دنانير بدأت أنقص من الثمن الذي قررت أن أطلبه إذا ما ابتسم لي الحظ مرة وبعث الي راغبا في الشراء ... بأربعة ممكن... حتى ولو بثلاثة... لكن ليس أقل. هكذا كنت أتمتم، وفيما أنا على هذه الحال لمحت من بعيد سمرة أليفة بين الناس قادمة نحوي، وكلما ازدادت قربا ازددت تأكدا من أن صاحبها عراقي. كان يتلفت مقطبا ينظر في وجوه الناس والى المحلات، ولكن ما أن لمحني حتى بدأت ملامحه تنبسط ولاحت ابتسامة خفيفة على شفتيه. توقف عندي وقال:

"–السلام عليكم."

رددت عليه:

"–وعليكم السلام."

كأنه كان يريد التأكد من أني عراقي فلما أكدت له لهجتي ذلك استدار عندها ليقف مثلي مواجها الجانب الآخر من الشارع، وقرّب حقيبته لتكون عند قدميه وأخرج منها عشر ساعات مثل الساعات التي عندي ورتبها فوق الحقيبة. نظر إلي وهو منحن:

"-أنت عراقي؟ والله عرفتك من بعيد... خلقة العراقي مبَيْنَه."

بدا لي سؤاله غير ضروري كما لم أستسغ منه لفظ "خلقة".

بدأنا تدريجيا نتبادل الحديث وعرفت أنه قدم الى الأردن منذ بضعة أيام مثلي. أخذ بعد قليل يدلل على بضاعته بلباقة "شرِّفْ خيّوهْ ... شرِّفْ. ساعة درجة أولى" فتشجعت لأفعل مثله بدافع المنافسة ولكن بصوت خجول متردد. بعد قليل حدث شيء غريب، كأن الناس أصابهم اهتمام مفاجئ بالساعات اليدوية.... ولكن ليس بالتي عندي بل بالتي عنده. باع صاحبي كل ما كان لديه من ساعات وكان أقل سعر باع به أربعة دنانير.

قال:

"-أنا جائع... سأذهب لآكل لفة وأعود اليك."

بعد أن ذهب كف سكان عمان عن السؤال عن ساعة، وعاد الناس يمرون بي بلا مبالاة بغيضة، وبعد وقوف مضجر ومخيب رجع صاحبي وقد أكل وشرب وبان الانتعاش عليه. نظر الى الساعات في يدي وقال:

"-ألم تبع ولا واحدة؟ ..."

ثم أضاف بعد أن صمت للحظات يفكر:

"-هل تبيعني إياها؟ بكم اشتريت الواحدة؟"

قلت:

"-بدينار."

فسارع الى القول:

"-أعطيك الدينار."

في تلك اللحظة كنت قد وصلت الى درجة من اليأس والملل اعتبرت فيها عرضه هذا ربحا لم يخطر لي على بال فمددت يدي بالساعات اليه قبل أن يكمل ممتنا له لأنه خلصني منها. لكني توقعت أي شيء إلا أن يأتي رجل بمجرد أن أصبحت الساعات في يده ويأخذ بالنظر اليها باهتمام ثم يقول:

"-بكم تبيع هذه الساعات جملة؟"

قال صاحبي وهو ينظر الي بطرف عينه:

"-بعشرين."

قال الرجل:

"-أعطيك خمسة عشر."

"-حلال عليك."

نقده الرجل المبلغ وأخذ الساعات ومضى. أعطاني ستة دنانير من النقود ووضع الباقي في جيبه وهو ينظر الي ويضحك كالطفل.

لقيت من الهم ما كفاني ذلك اليوم ولم تعد لدي الرغبة في الحديث مع أحد، خصوصا معه هو. قلت بصوت بالكاد يسمع:

"-في أمان الله."

ومشيت ولكنه مشى الى جانبي. توقفت بعد قليل عند مطعم واشتريت لفة فلافل سفري وضعتها في الحقيبة. كان طوال الطريق يحاول أن يلطف الجو بتعليقات ظريفة على لافتة مطعم ذات اسم غريب أو فتاة ترتدي ثوبا صيفيا في هذا البرد. لم أعر لما يقول اهتماما وأجبت على اسئلته أجوبة مقتضبة ولكني انتبهت لقوله وهو يجول بنظره فيما حولنا:

"-ما الذي أتى بنا هنا غير الضيم؟"

قلت له:

"-إن لك حظا جديرا بأن يجعلك صديقا لصدام حسين فعن أي ضيم تتحدث؟"

نظر الي وهو لا يعرف بماذا يجيبني ثم عدل من وضع حقيبته المعلقة على كتفه:

"-إن كنت تقصد بيعي للساعات فإعلم أني حاولت بيعها في العراق قبل مجيئي ولم أبع سوى واحدة وقد ضحكت من المفارقة حين بيعت التي عندي والتي اشتريتها منك بتلك السرعة.... لقد كنت متعجبا مثلك تماما."

"-إنما تقول هذا اتقاءً للحسد."

"-ظن ما تشاء."

حين وصلت الى الفندق كان لا يزال يسير معي. توقفت عند المدخل والتفت اليه:

"-هل تنزل هنا؟"

أجاب:

"-لا. في الحقيقة لم أنزل في فندق."

شعرت بالإحراج ولكن لم يكن لي بد من أن أحسم الأمر على وجه من الوجوه لنفترق:

"-الغرفة التي أنام فيها تلك."

وأشرت الى نافذة في ركن البناية:

"-كانت مخزنا صغيرا أو ما شابه وقد سمح لي المشرف بعد التوسل بالنوم فيها في الليل فقط مقابل أجرة مناسبة ويوجد معي في الغرفة ثلاثة و..."

صمت لحظات ثم قلت بصعوبة:

"-بودي دعوتك لقضاء الليل هنا ولكن أخشى أن يطردنا المشرف فإذا أحببت...."

هز رأسه وأجابني بحزم:

"-لا لا لم أفكر في هذا.... أراك بخير"

سار مبتعدا وعبر الشارع نحو حديقة قريبة. شاهدته يجلس على مسطبة خشبية ويحاول أن لا يلتفت باتجاهي.

بعد قليل راقبته من النافذة وأنا أمسك لفة الفلافل بيدي وأمضغ لقمتي ببطء وشرود ذهن. رأيته يخرج من الحقيبة أشياء صغيرة، ثلاثة أو أربعة لم أتبينها، ويرتبها على المسطبة، وطوال ساعة أو نحو ذلك رأيت مرة رجلا يتوقف عنده ومرة امرأة عجوزا قالت له شيئا ومضت، ولكني لا أظن أنه باع شيئا لأي منهما. حل الليل وبدأ البرد يشتد. نظرت حولي في الغرفة. لم يأت الثلاثة بعد وقد لا يأتون الليلة لأنهم يعملون في كازينو ولكن لا يمكن أن أجازف فأدعوه للنوم هنا. رأيته يعيد أشياءه الى الحقيبة وينتقل للجلوس في جانب شجرة اتقاء لتيار الهواء البارد. تطلعت بعد فترة فلم أره في أي مكان.

لكن ما أن تمددت وأخذت أتغطى حتى سمعت طرقا على زجاج النافذة. نهضت وفتحت النافذة فإذا به واقف عندها يتململ. قال:

"-الله يخليك صديقي.... الدنيا باردة جدا... اعطني بطانية وسأعيدها اليك في الصباح".

فكرت أنني يمكنني، لليلة واحدة، تحمل النوم ببطانية فناولته إحدى البطانيتين. هذه المرة لم يذهب الى الحديقة العامة بل ذهب الى ركن مقابل للنافذة في حديقة الفندق الصغيرة المظلمة وتمدد خلف كوم من النفايات على قطعة كارتون كان قد أعدها سلفا ووضع حقيبته تحت رأسه. بعد ذلك، طوال الليل، كلما نهضت لأنظر اليه واطمئن على البطانية لم أكن أرى غير كرة بشرية ملفوفة ببطانية.

في الصباح الباكر طرق النافذة وأعاد إلي البطانية، كما وعد، وبمجرد أن وضعتها على السرير والتفت نحوه كان قد غادر و.... ترك على حافة النافذة مبلغا من المال حين حسبته كان هو الدنانير التسعة... نصيبه من ثمن الساعات التي بعتها له. لم أره خلال تجوالي في الأيام التالية في أي مكان أبدا. الشيء الغريب أننا طوال الساعات التي قضيناها معا لم أسأله عن اسمه ولا هو سألني عن اسمي.

30 آيار 2020

شامة سوداء ونمنم أبيض

وصل (سلام) ناصية الزقاق. رأى خيال (أم كريم) وسمعها تسب ابنتها الصغيرة (ليلى) صارخة صرختها المعتادة التي حفظها. ما أن قالت (ولچ...) حتى سبقها قائلا في سره (... بت الزفر). سكبت الماء الوسخ من جردلها بقوة على الرصيف القيري فانساب متقلبا الى المجرى. أحس برذاذ من الماء يسقط على حذائه وعلى أسفل بنطاله، قطرات خمن أنها لزجة كثيفة بعض الشيء. تساءل عن نوع الأوساخ التي يمكن أن يكون قد احتوى عليها ماء أم كريم هذا اليوم. سمع طقطقة الجردل وهو يرتطم بحافة الباب الحديدي عند رجوعها الى الخلف. حدث مثل هذا فيما مضى عندما كانت تسكب الماء مرة وتطاير نحوه رذاذ منه. ابتسمت له معتذرة وهي تقول آسفة (يا..يمه... العفو عيني.. والله ما أدري...) لكنها هذه المرة لم تقل شيئا. قال في نفسه (عبالهه ما أشوفهه ... غلست). خطا بتوأدة على مكان انسكاب الماء. تملكته الرغبة في أن يناكدها فقال لها دون أن يلتفت نحوها (سوينه زحمه عليچ أم كريم) فلم تجبه ولكنه كان قد رأى بطرف عينه خيالها لايزال عند الباب. لم يكن أعمى تماما .. إنه يفضل وصف (أعمش) فهو يمكنه رؤية خيالات الآخرين، ويجد متعة في أن يحزر لمن هذا الخيال أو ذاك وهو يسير في الزقاق نهارا. لم يخبر أحدا من جيرانه لكي يظنوا أنه قد عمي فعلا فيستمتع بما يبدر منهم لهذا الظن كما حدث مع أم كريم. قال لنفسه (ميخالف... أعمش ولا أعمى).

حاول طيلة الأشهر الماضية أن يتكيف مع هذا العمش، وأن يكتشف جماليات محيطه الداكن الجديد ذي الألوان الشاحبة قد داهم عينيه وهو يشاهد فيلما. بعد مراجعات للأطباء لا جدوى منها قنع بنصيبه الأخير من الرؤية. أخذ ما يحتاجه من وقت ليعتاد على امتيازات وضعه الجديد ويضبط حركاته ويحدد معالم دنياه المتوحدة في البيت الذي غادره الأهل الى سوريا منذ ثلاث سنوات ليستقروا مع أقرباء لهم أقاموا هناك منذ زمن بعيد، وبقي هو الى جوار مكتبته

وقريبا من أصدقائه غير راغب في تعريض نفسه الى معاناة حياة المهاجر. لم يخبر أهله بما جرى له رغم كثرة اتصالاتهم بالهاتف ليبلغوه بأخبارهم أو يرسلون له مبلغا من المال.

استدار داخلا الزقاق، محاذيا واجهات البيوت الصغيرة المتشابهة التي بنتها الحكومة للفقراء في زمن غابر، وهو يضرب بعصاه ضربات الأعمى الحقيقي فقد غابت الشمس وأخذت الصور تكتسب في عينيه قتامة متزايدة وتميل الى التداخل والتلاشي في سواد شفيف. كانت الأبواب المواربة تنفث نحوه روائح الطعام الذي يعد للعشاء، وأصوات ساكنيه المميزة. باب يبادره بدمدمة العجوز (سوادي) يتذمر باحثا عن سجادة الصلاة، وباب ثان يرميه بصراخ طفلين يتعاركان وأمهما (زهرة) تطلب منهما الهدوء، وباب ثالث يمتلأ بنشرة الأخبار الصادرة عن التلفاز الذي يعلو ضجيجه على أزيز مولدة كهرباء صغيرة. وصل الباب الرابع، كان هو الباب الأخرس المغلق، باب بيته. أخرج المفتاح من جيب بنطاله الخلفي، ووجه يده به توجيه المجرب الخبير نحو الثقب وأدخله دون عناء، وما أن أداره ليسمع الظلفة تطقطق ويرتد الباب مفتوحا قليلا حتى سمع خلفه من يحييه (شلونك عمو سلومي؟). عرفه من صوته ... الطفل (أمجد) ابن الجيران. أجابه(الحمد لله) بشيء من الجفاف ودون أن يلتفت. كانت هي التي تسير الى جوار أخيها دون شك. سمع خطوتها الرقيقة النشطة وخفق عباءتها وهي تعبر مجرى الماء الذي يتوسط الزقاق. لم يرغب أن يكون ودودا وملاطفا في إجابته لكي لا يتمادى الطفل المشاكس المرافق لها فيناله بتعليق عابث أمامها إلا أن الطفل، وقد ابتعد خطوات، التفت مرة أخرى نحوه وصاح (شلونهه عيونك؟). سمع (خالدة) تضربه، على رأسه ربما، وهي توبخه (عيب... طايح الحظ!). وصلت كلماتها الى أذنه كزقزقة عصفورة مستاءة لأجله فارتعش لها وهو يدفع الباب بيده ليدخل.

عندما كان بصره سليما كان يلتفت اليها ويبتسم لها، وربما تبادل معها التحية وبعض كلمات المجاملة. سألها مرة ممازحا، ومتغزلا (رجاءً ﮔولليلي خالدة ... ليلى علوي شتصير منچ؟). ابتسمت بامتنان وفرح وهي تغالب ضحكة خجولة (ما أدري...) ومضت بخطوات أنشط من المعتاد نحو محل (زيارة) البقال. لم يكن يكبرها في السن كثيرا... بضع سنوات، فارق لا يمنع أن يتمنى إقامة علاقة معها،... وربما أكثر. هو في الخامسة والعشرين وهي في ربيعها السابع عشر. لكنه صرف النظر عن جميع أمانيه معها منذ ذلك اليوم.

كان يومها جالسا على الأريكة قرب الباب المواجه لمدخل البيت يقرأ عددا من مجلة (السينمائي) المليئة بالصور الخلابة للممثلات والممثلين وبملصقات أحدث الأفلام، ودخلت هي حاملة على كتفها قنينة غاز كان قد أعارها لأهلها في اليوم السابق وهو ممتن لأنها هي التي جاءت اليه بالأمس قائلة بأسلوبها غير المتكلف معه (عيني سلومي.. الله يخليك ما عندك قنينة غاز متروسة؟ إنريد إنكمل طبخنه عليهه... بقه على النص...). أعطاها القنينة الوحيدة عنده. قال لها بود مشوب بالرغبة (إي عيني خالدة بخدمتچ...) وركز اللفظ على حروف (بخدمتچ) وهو ينظر نظرة متطلعة الى ما تحت العباءة عند الصدر. كانت فتحة العباءة تكشف عن الأقواس التي تشكل الجمال في الوجه، والعنق، وفتحة الثوب الأحمر بحافتها المنمنمة التي تقع تحت نقطة تقارب النهدين عند شامة سوداء بحجم حبات النمنم الأبيض المجاور لها والذي يرتفع بقوسه مؤطرا بشرة حنطية تلمح له بلون النهدين القويين الصغيرين المستقرين بتكويرين نابضين تحت القماش. أنعشت وعيه الذي كان الدوخان قد بدأ يدور به بقولها (فدوه.. بلكي إتشيّلني...خليهه على چتفي!). بدا له أنها حين تتكلم معه تتعمد الإيحاء له بأنها تريد منه أكثر، أو غير ما يصرح به لسانها بارتجافة الشفتين وهي تلفظ (عيني) وفي نظرة عينيها الناعستين وهي تلاطفه بنعومة سخية بكلمة (فدوه). رفع القنينة وتلقتها بيديها فإنزاحت العباءة من اليمين الى ظهرها وتجلى له الزند حتى نقرة الإبط فلاحظ أن بشرتها تميل الى لون حنطي فاتح أقرب الى البياض تحت الثوب. ابتسمت دون أن تنظر اليه وأعادت عباءتها الى وضعها السابق بيدها ثم خرجت من الباب الذي تركته نصف مفتوح عند دخولها. عندما أعادت القنينة في اليوم التالي نهض من الأريكة وتوجه نحوها وهو يأمل أن يستعيد معها ما إنقطع بالأمس من مناغاةٍ مراوغةٍ للذة . في تلك اللحظة دخل خلفها أخوها الأكبر بجرمه الضخم الأصلع وقد بدت على وجهه علامات غضب لا يكاد يكتمه. عنفها فيما كانت هي تتضاءل أمامه (لچ ... آني موگتلچ خللي أمي ترجعهه؟) ورفع يده ينوي أن يضربها فبادر (سلام) الى القول محاولا التخفيف من غضبه (عيني قاسم عله كيفك هسه قابل هيه سوت فد شي غلط؟) فالتفت اليه قاسم بعيون تقذف الشرر مشيرا اليه محذرا بيده التي كان ينوي ضربها بها (أسكت إنته ... تره...). ابتلع (سلام) ريقه وشدد قبضة يده على المجلة كاتما بهذا ارتجافا كاد أن يفضحه. لطالما كان الود منذ الطفولة مفقودا بينه وبين قاسم الذي كان يميل الى العنف والمشاكسة فيما كان سلام ينجذب الى الألعاب الهادئة وقراءة مجلات

الأطفال. لم يرغب في أن يدخل في نزاع معه فتكون النتيجة أن يشج رأسه بالقامة التي يخوض بها معاركه فسكت على مضض.

دفع الباب ودخل مكعب الظلمة وقد تعكر مزاجه لهذه الذكرى. فكر أن يلتمس طريقه نحو (اللالة) التي يضعها على منضدة صغيرة ويشعل فتيلها لكنه صرف النظر قائلا بصوت مسموع (ماكو داعي). دب نحو سريره المجاور لمكتبة أفلامه في غرفته الصغيرة. أسند عصاه الى المكتبة فانزلقت بصوت شاحط حتى تلقاها الجدار بين السرير والمكتبة. جلس واضعا يديه بين رجليه وقد شبك أصابعهما. لم يدر كم بقي هكذا ... ساعة .... ساعتين يستمع الى صوت السكون يخالطه أزيز صرصار تارة وخشخشة لا يعرف كنهها من حشرة أو فأر تارة أخرى، ومن بعيد، من خارج البيت كان يتناهى اليه أصوات أناس عابرين في الشارع، ويسمع قاسما يمارس هوايته المفضلة في الليل وهي الثرثرة مع شخص ما وسط الطريق، وقد يقطعها لينادي على شخص آخر (هاي ولك وين رايح؟ ... تعال عاوي ....) ثم يواصل الثرثرة المطوفة على مواضيع شتى من (نانسي عجرم) الى الفتاوى الشرعية التي يعجبه لفظها بفصحى مكسرة فظيعة. ابتسم سلام. لم يكن يكره قاسما... ولم يكن يحبه أيضا. صحيح أنه كان معجبا بشجاعته الهوجاء التي نفعته عندما كانا صبيين وكان بعض الصبية من الأزقة الأخرى يضايقونه أو يتشاجر معهم فيندفع قاسم لينصر ابن زقاقه ويبطش بأحدهم فيتفرقون هاربين. هذا كله انطوى في الماضي البعيد. لايزال بعيدا عن كرهه وعن حبه أيضا، إلا أن ذلك الاعجاب القديم ظل مستقرا في ذاكرته ... في مكان ما... بديلا عن حب غير موجود وصداقة ناقصة. كانت خالدة كأخيها على مبعدة أيضا ولكن من الجهة التي تكون المسافة فيها هي الود الذي يقترب حبا، الصلة بين براءة الطفولة وبراءة الشهوة. عندما انتقل وقاسم الى الدراسة المتوسطة كان قد بدأ ينظم شعرا بسيطا متواضع القيمة ويلقيه في المناسبات المدرسية فيما ضجر قاسم من الدوام في المدرسة منذ السنة الأولى في المتوسطة وتركها ولكنه قبل أن يتركها أطلق عليه لقب (سلام الشاعور) الذي رافقه حتى تخرج من الثانوية وترك الدراسة هو أيضا. الحقيقة أنه ترك الشعر قبل تركه الدراسة فقد أوصله طريق مجلات الطفولة الى حب الأفلام أكثر من الكتب، وشغف منذ مراهقته بجمع أشرطة الأفلام وربما كان هو الوحيد الذي لديه فيديو أشرطة وأول من أشترى فيديو أقراص في الحي.

رن الهاتف. كان المتصل صديقه الذي كان سلام في ضيافته طوال العصر يحتسيان الشاي ويتحدثان في الأفلام وفي السياسة ويتحولان الى الحديث بحماس عن فوز منتخب العراق في البطولة ولعب لاعبيه، اتصل به الصديق ليطمئن الى أنه وصل البيت فطمأنه وشكره وأعاد سماعة الهاتف الى مكانها. مست أصابعه الكتب وعلب الأقراص والأشرطة ففتح يده ووضع راحته على كعب أحدها. حرك يده على الكعوب الواحد بعد الآخر الى أبعد ما تصل يده وهو جالس، ثم أرخى ذراعه فهبطت الى جانبه واستقرت يده على الوسادة...تنهد... ماذا يفعل بالذي بقي له من صحو الليل؟ فكر أن يشغل المذياع ... تردد أول الأمر ثم قرر أن يشغله ويبحث عن إذاعة (العراق الحر) حيث يمكنه الاستماع الى الأغاني العراقية القديمة ويمنع بأنغامها اصوات الخارج من الوصول اليه. لم تكن توجد أغان أول الأمر بل برامج أخبار وحوار، تمدد على الفراش دون أن يكون مصغيا الى ما يدور في المذياع، استدار نحو الجدار الفاصل بينه وبين خالدة وأسند جبهته اليه. ربما كانت تقف الآن في الجانب الآخر مستندة بظهرها الى الجدار، ربما كانت تستشعر بجسدها ذبذبة ما، دفئا ما، لوعة ما تتغلغل في ظهرها الفتي وتتصاعد رعشة تجعلها تمد يدها الى صدرها وتتحسس ثم تضع إصبعا على الشامة الوحيدة بين النهدين. أغمض عينه على ظلمتها شيئا فشيئا وهو يستمع الى المذيعة تعلن بصوتها الهادئ المألوف نهاية البث فيما شرع ياس خضر يغني ليل البنفسج

****

هذه القصة، شامة سوداء ونمنم أبيض، لو كتبتها الآن لما كتبتها هكذا، لما استطعت أن أكتبها أصلا بتعبير أصح. مرت سنوات طويلة وتغير المزاج وتحولت الاهتمامات وتغيرت النظرة الأخلاقية للأولويات في الكتابة... هذا جواب على سؤال هل يحتاج الناس هذا النوع من القصص الآن؟ حقيقةً لا أدري بالضبط متى كتبتها، عموما في زمن النظام السابق، ونضدتها بعد سقوطه، وحاولت نشرها ربما قبل 15 سنة أو نحو ذلك، ولا أدري هل نشرت في ذلك المطبوع أم لا. فجأة برزت لي عندما استنقذت موادا من هارد أخرجته من حاسوب لي عاطل وتركته جانبا منذ فترة طويلة. أصارحكم القول، كدت أتلفها، أمسحها، فلم تستسغها ذائقتي الحالية وكدت أقع في هذا الفعل الفاشي الديكتاتوري الذاتي، لكن هذه القصة أشعرتني لأول مرة بقوة أن من النصوص ما يستقل عن كاتبه

وتصبح له شخصيته المستقلة، هو كائن حي على نحو ما والإقدام على إتلافه كقتل الانسان، كحرمانه من حقه في الحياة... فلتعش حياتها إذن.

فازت القصة بالمركز الثاني في مسابقة السرد الروائي سنة 2020 (دورة الروائي الكبير أحمد خلف).

المروحة

.....أنا أيضا يا صديقي رأيت عددا من الحوادث المرعبة، صدقني... لكن هذه الحوادث لم تخلق عندي عُقَدا كما أظن. أجل... جعلتني أكثر حذرا ولكن لم تجعلني موسوسا. أما ما حدث مع صديقنا سبهان فشيء مختلف. كنا قبل الاحتلال ضمن مجموعة من الجنود نؤدي خدمة الاحتياط للمرة الثالثة أو الرابعة وقد جعلونا، بوصفنا جنودا قدماء نعد في مقاييس الجيش كبار السن، حرسا على محيط مخازن عتاد الحبانية فوق مرتفع في الناحية الأخرى من التلال، وفي غرفة من البلوك، سقفها عبارة عن عوارض من الخشب الأبيض والصفيح المضلع، شديدة الحرارة صيفا شديدة البرودة شتاء، ولم يوصلوا للغرفة كهرباء خشية أن نجلب تلفزيونا ووسائل ترفيه أخرى تكون سببا في إلهائنا عن واجبنا.

انتبهت القيادة آنذاك الى أن الوقت حان لتحديث منظومة تهوية مخازن العتاد التي كانت مقتصرة، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، على مراوح انكليزية كانت لا تزال تعمل حين أنزلوها بعد خمسة وخمسين سنة منذ أن شغلها الذين نصبوها أول مرة ولم تتوقف منذئذ. ربما كانوا يتعهدونها بالتزييت والصيانة... لا أدري، ولكني أعيد على سمعك ما قاله لي العريف الكهربائي الذي جلب لنا واحدة منها وأوصل لنا الكهرباء بأن مد على الأرض عبر التلال سلكا من أقرب مصدر. لقد كانت مروحة حديدية جميلة الشكل، ما أن مسحناها بعناية حتى بان لونها "النسكافيه" ناصعا كما كان منذ القدم، وجزؤها السفلي النحاسي المدبب اللامع كالذهب مثل الجزء المدبب في أعلى خوذ الجنود القديمة أو خوذ وحدات الفرسان عندنا زمن الملكية، ولكنها كانت ثقيلة حقا وتطلب الأمر أن يتعاون أحدنا مع الكهربائي لرفعها وتعليقها، وعندما أبعدا أيديهما عنها صدر من العارضة صرير مبتور لثقلها "قيييق". لم يستمر هذا الصوت أكثر من لحظة، ولكنه كان كافيا ليثير فيّ الخشية من هذه المروحة المعلقة فوق رؤوسنا بريشاتها الأربع، نعم ريشات أربع، طويلة قوية ذات حديد خطَرَ على بالي أنه يصلح أن يُصنع منه نصال سيوف.

كان منهي موجوعا من بردٍ وحرٍ تعاقبا علينا سنتين وخفق قلبه فرحا لحصولنا على مروحة فلم يرض بأقل من أن يكون فراشه تحتها بالضبط، وإذا كان سبهان قد أزعجه أن يحصل منهي على مكان أراده لنفسه فإنه بالنتيجة قنع بما عنده وحَسْبه أن هواءها اللهاب في الظهرية الصيفية يصله منه خفقات بعد حرمان.

لا أطيل عليك يا صديقي... لم تمض إلا بضعة أيام وسقطت، وكان سقوطها صاعقا لا ندري كيف حدث، كنا ثلاثة في الغرفة، منهي وسبهان وأنا، أما الباقون فقد كانوا في استراحة نهاية الاسبوع. أفلتت من القضيب الذي يحملها والذي وضع بالعرض فوق لوحين من الواح السقف، ولو قدر للمروحة الانكليزية الاستعمارية بالغة الثقل التي لم يوهن قوتها تعاقب السنين عليها وهي تدور أن تسقط على الأرضية مباشرة لحفرت حفرة فيها ولو صادف أن سيوفها الأربعة أصابت أحدا وهي تدور في انحدارها الجهنمي لبترت له ذراعا أو ساقا إن لم تقطعه نصفين، فكيف وهي قد نزلت على منهي الجالس تحتها مباشرة وهو ينثر الماء على كِلَّتِه من طاس بيده قبل أن يتغطى بها، التمعت النبلة الذهبية في دورانها تلك اللحظة أو ذلك الجزء من الثانية قبل أن تغطس في رأس المسكين الذي ارتد الى الخلف فأخذت الريشات للحظة أيضا تضرب الجدار وتنثر علينا مع بعض الشرر قطعا منه وغبارا ثم توقفت. بقي منهي دون حركة مائلا الى جانب باتجاه سبهان الذي جحظت عيناه وهو يرى طرف إحدى الريشات وقد استقر معوجا قليلا قرب فخذه على الأرض بحيث صار متكأ يسند ثقل المروحة وثقل الرجل الميت معا.

منذ ذلك اليوم لم يعد سبهان ينام تحت مروحة سقفية أبدا. حتى حين ينام على مبعدة فإنه يحسب مقدار الخطر واحتمالاته لو سقطت المروحة فيحرف فراشه قليلا إذا لم يكن الابتعاد نهائيا متعذرا ويظل في هذه الحالة يرمق المروحة بين الحين والآخر. استمر هذا الوسواس عند سبهان حتى بعد أن تسرحنا، أو تسربنا من الجيش بتعبير أدق، عند الاحتلال، وحتى بعد أن صار يجلس تحت مروحة صينية خفيفة وليست ثقيلة مثل تلك التي عافها الاستعمار تركة لنا.

لم يكن سبهان متزوجا وكان يعيش مع عائلة شقيقته. إنه من العراقيين الذين كتب عليهم أن لا يذوقوا حلاوة الزواج وتكوين أسرة وأن لا يمتلكوا مترا واحدا في وطنهم مترامي الأطراف فلما

صار ممكنا له، مثلي وفي المنطقة نفسها، أن يشتري قطعة أرض زراعية صغيرة، بنى فيها بناء بسيطا، غرفة ومطبخا وحماما، لا يختلف كثيرا عن غرفتنا وملحقاتها أيام الجيش. لم يكن لسبهان آمال كبيرة والركن الذي حصل عليه في هذه الدنيا سكنا، وهو ملاذ أيضا على نحو ما، يكفيه سعادة أن يشير اليه ويقول "بيتي"، مع ذلك فقد كان هذا المسالم المتعفف يعيش كابوسا مؤبدا، فالمروحة الصينية الرخيصة التي تدور متراقصة يمينا وشمالا لم تكن تجود عليه بنسمة هواء إلا أن يكون تحتها مباشرة، وهو ما لا يمكن أن يُقدم على فعله في الصيف ولا حتى في الشتاء فقد تفاقم وسواسه بمرور الزمن وصار لا يأمن على نفسه أن تسقط عليه لسبب ما وهي متوقفة.

ذات مرة كنا جالسين في زاوية من الغرفة ورفع بصره الى المروحة وقال:

-هل تعرف... أحسن طريقة أعمل سقفا ثانويا..

-كيف يعني... ما فائدة السقف الثانوي؟

-افهمني... سقف ثانوي تحتها وليس فوقها... من الحديد المشبك لا يمنع هواءها من الوصول الى كل مكان في الغرفة وفي الوقت نفسه إذا سقطت تسقط عليه ولا تؤذي أحدا.

ضحكتُ بمرارة اشفاقا عليه إذ أصبحت أرجح أن هزاله وامتقاع لونه سببه تفكيره الدائم في خطر المروحة. ربما... لا أعرف على وجه اليقين.. ربما صار هذا حائلا بينه وبين أن يقدم على خطوة الزواج وتكوين عائلة فمن المستحيل على أحد مهما بلغ من قوة المنطق أن يقنعه بأنه لا يمكن، في يوم ما، أن يرى بعينيه زوجته أو طفله أو كليهما وقد سقطت عليهما المروحة وهما نائمين أو جالسين تحتها أو يكون هو مصدر إقلاق دائم لعائلته بتحذيراته ونواهيه، ومن يدري.... فهو لم يكن ميالا الى البوح بما يأكل عقله وروحه من هموم، لعله أصبح يرى في أي جهاز منزلي مبني على فكرة الدوران جانبا خطرا يجعل عاقبة استعماله غير محمودة. باختصار فقد سبهان شيئا فشيئا صلاحيته للحياة السوية، ولم يبق له صديق يلتقي به غيري تقريبا. من الصعب علينا أن ندرك تطور عقدة نفسية عند إنسان وكيف تكبر وتحيط به لتحاصره وربما تتكاثر الى عقد شتى أو تتفاعل مع عقد أخرى كانت كامنة فتحركت ويصير

بالنتيجة عصيا على شخص ما العودة الى المجتمع، بين الناس، ليتقاسم معهم نعمة إنسانيتهم المشتركة ويتبادلون فضائل العيش بحسناته وهفواته ويشذبون وجودهم بأخطائهم.

التفتُ اليه متظاهرا بالجدية قدر استطاعتي لعلي بكلامي أوجه اليه هزة، أسد عليه طريق الاستيهامات ليدرك أنه لا مناص له من اتباع المنطق السليم في التفكير كباقي الناس والتخلص من هذه العقدة التي أراها غاية في السخف. قلت له:

-وما أدراك... لعلها تسقط على سقفك الثانوي فتطيح به، عندها سيصاب كل من في الغرفة بأذى.

لأول مرة ينظر الي بحقد، وعرفته، ذلك هو الحقد الجنوني الذي لا يولد إلا من الإنفصام عن العالم. لقد خيبت أمله، أنا الصديق الوحيد الباقي له، فكرهني ولم يكن بوسعي أن أفعل شيئا لهذا الكره.

حين هممت بالمغادرة قلت له برما بقلقه:

-إشتر لك مروحة أرضية يا أخي...

فارقته أسبوعين لأعمال في البيت فقد كنت أكمل شيئا من بناء البيت كلما توفر المال لدي، وفي الأسبوع الثالث جلست على الأرض في الغرفة التي انتهينا منها للتو، نظرت الى الجدران وبياضها اللامع الجديد وخط السيراميك الأزرق أسفلها في نقطة الالتقاء بالبلاطات ذات التشكيل الكوكتيل، ثم نظرت الى السقف والمروحة.... ولكن لا تظنوا أن مرض الوسواس قد انتقل إلي من سبهان، كل ما في الأمر أني ما أن أرى مروحة سقفية لا أستطيع منع نفسي من تقدير ارتفاعها عن الأرض، ومن رسم خطين وهميين واحد ينزل مباشرة من المروحة على رأس منهي والثاني يمتد الى اليمين حيث يجلس سبهان.

24 نيسان 2020

يوم شبت بعبد الله النار

جاء عبد الله في منتصف الليل الى دارنا، دار العُزّاب في المجمع السكني، على عربة "ربل" صادفها في القشلة واستأجرها إذ لم يجد سيارة تقله، وقضى الطريق الذي تحفه من جانبيه بساتين النخيل يغني بصوت منكر ويكاد يسقط من العربة لولا الحوذي الذي يمسكه كل مرة ويعيده الى الوراء.

لم يذهب الى بيته الذي يفصله عن بيتنا شارعان فقط بل وجه الحوذي الينا. كنت ساعتها جالسا في الحديقة الصغيرة الأمامية غير راغب في النوم بعد، فأسرعت اليه لأدخله قبل أن يوقظ بصخبه الجيران، ونحن وقتها نحرص على التقيد في سلوكنا، بعد أن كنا نحتسي الخمر في الدار ونأتي بفتيات كلما استطعنا ليقضين الليل معنا، فقد سمعنا إشاعة مفادها أنهم لن يخصصوا لنا داراً مستقبلا في أي مجمع وسط المدن بل غرفة في المعامل حيث تتوقف ورشتنا السيّارة وحيث لا يوجد غير الأرض القفر حولنا، وربما اتخذوا من أي سلوك يشتكي منه الجيران حجة لجعل النقل أمرا واقعا.

عانق عبد الله من وجده منا مستيقظا، مع أنه كان طوال اليوم معنا، وأشبعنا قبلات ثم تمدد على سرير الى جانب سبتي الذي استيقظ مذعورا، عندما أخذ عبد الله يتدثر معه بالبطانية، وترك له السرير ليكمل نومه على الأريكة.

ربما بدا لمن لا يعرف "عبود" أن العرق الذي احتساه في النادي أنساه أنه قد تزوج منذ سنتين وحصل على دار في هذا المجمع بفضل الزواج، إلا أنه بقي معنا في مفرزة التصليح، الورشة السيّارة التي تجرها قاطرة، والتي نتنقل بها حيثما دعت الحاجة الينا في المنشآت، أو يظن أنه يحن لأيام العزوبية معنا وهو ما قاده الينا تلك الليلة. لكننا كنا نعرف شيئا آخر.. فتاة في مقتبل العمر يتفجر جسدها شهوة ومتزوجة من شاب لا يقضي معها كل شهر سوى أيام معدودات لا تكفي لإزالة آثار التنقل بين الأماكن المليئة بالمكائن العاطلة وزيوت التشحيم وأنواع الوقود وروائحها التي تنام عميقا في مسامات الجسد، ثم يتركها ليغادر من جديد، فتظل فريسة للوحدة وفراغ الفراش، غير أن الرفيق مولود الأسود، ضابط أمن المجمع، أخذ يؤدي

الواجب عنه في غيابه، إضافة الى وظيفته. وهكذا لم تعد تعبأ بحضور عبد الله أو بغيابه وأخذ صاحبنا يشعر شيئا فشيئا أنه لم يعد يوجد شيء مهم يربطه بها، ولكن لنكن منصفين، الشهادة لله، أصبحت تمده دائما بالنقود ليقضي ليالي كتلك الليلة، وكان يسألها في البداية عن مصدر النقود ثم بدا له السؤال سخيفا فلم يعد يسأل، لا بل لم يعد يقول شيئا.

في الصباح، ونحن نتوجه الى الساحة التي نتجمع فيها بانتظار "اللاندكروز" التي تقلنا الى معامل الصيانة في الناحية الأخرى من المدينة، أسر لي سبتي وهو يخرج كلماته من بين أسنانه مستاء بعد أن التفت الى الخلف ليتأكد من أن عبد الله يسير خلفنا بمسافة ولا يسمعه:

-أقطع يدي هذه إن لم يكن عبد الله بالأمس مطرودا من البيت، والرفيق مع المدام.

التفتُ أنا أيضا الى عبد الله الذي يسير مطأطأ رأسه ويدخن حتى أنه لم يرفعه لينظر مجرد نظرة الى بيته الذي يمكن رؤيته من حيث كنا نسير. نظرت أنا نحو البيت. لم يكن ملحوظا على البيت الغارق في هدوء الصباح الباكر شيء يوحي بأن ما قاله سبتي عن "الرفيق مع المدام" قد حدث فعلا، ولكني بعد لحظة رأيت السيارة التي يتنقل بها الرفيق، التويوتا دبل قمارة، واقفة في ساحة وقوف صغيرة على مبعدة من البيت بحيث يمكن رؤيتها من نافذته. وبدا عليها أنها مقفلة ومتروكة طول الليل. كرر سبتي تذمره:

-سيسبب لنا مشكلة يوما..

وصمت قليلا ثم أضاف:

- ...... ويأتينا في منتصف الليل ويزعجنا ويلتهم الإفطار صباحا ويخرج كأنه لم يفعل شيئا....

قلت له ممازحا:

-هون عليك. إحذر أن تهيج عليك حساسيتك فقد كان إفطارك باقلاء بالزيت والبيض.

في الطريق راقبت عبد الله، يغفو من خمول سكرة الأمس وينتبه، ولم يرفع رأسه إلا عند اقترابنا من خيمة البدوي. نظر بعيون خدرة الى العجوز الذي نمر بالسيارة على مسافة من خيمته كل يوم وهو جالس نفس جلسته، ككل مرة، طاويا ساقيه تحته وواضعا وسادتين على فخذيه يستند اليهما بكوعيه، وبين أصابعه سيجارة دائما، ونظره مصوب الى الأمام، لا يلتفت يمينا ولا شمالا، ولا يبدو أن شيئا في الكون يثير انتباهه. أحيانا نرى امرأة معه ولكننا لم نر قرب خيمته في أوقات مرورنا قطيعا من الإبل أو الشياه، أو شيئا من هذا القبيل. رأيت عبد الله

يتمتم بكلمات كنت قد سمعتها منه سابقا، معبرا عن تعجبه لأنه يجد البدوي كل مرة على هذا الوضع، وظل ينظر باتجاهه حتى بعد أن أخفاه رواق الخيمة، ثم استدارت السيارة لتدخل المعامل.

ذهبت الى الإدارة لأرى إن كانت قد وردت أوامر عمل وحين عدت وجدت عبد الله مرتديا بدلة العمل التي استحالت زرقتها الى سواد من الشغل بها فترة طويلة دون أن تغسل وقد تشبعت بالزيوت والكاز، وقام هو وثلاثة من العمال بممارسة الطقس الصباحي اليومي الشتوي، إشعال قطع من خشب السكة الطرويز العتيق في صفيحة، والتحلّق حولها وتبادل الأحاديث . لكن عبد الله لم يكن مركّزا يومها على التعليقات والنكات بل يراقب باهتمام وصحو تام حركات المهندسة وهي تتجول بين الورش. عندما توفي والد هذه المهندسة قبل أشهر فاجأت الجميع، في اليوم الذي التحقت فيه من الإجازة بعد العزاء مباشرة، بارتدائها كوستماً صارخ الحمرة، ضيقا، عند الأرداف خصوصا، فبحلق عبد الله، وقال لي بصوت منخفض "هذه ثورة داخل الثورة"، وهو يراها تسير مبتعدة بالكعب العالي الذي جعل السير به حركات ردفيها أكثر وضوحا، ثم أخذ ينظر الى تناوبهما ارتفاعا وانخفاضا، وأضاف " هل تعلم ما يقولان... هذان الردفان؟ واحد يقول "شعْليّهْ" فيجيبه الثاني "معْليّهْ" وأخذ يردد باستمتاع "شعليه... معليه... شعليه... معليه".

لا مفر من ترك العمال يكملون طقسهم الصباحي حتى يستحيل الخشب الى رماد في الصفيحة فيما يتناول آخرون إفطارهم في ورشة من الورش قبل أن ينهض الجميع الى العمل. كانت النار تزداد التهابا وارتفاعا بحيث ابتعد أكثرهم خطوة الى الوراء من شدة الحرارة، ولكن عبد الله لم يبتعد ولم ينتبه الى أن قماش بدلته بدأ يبعث بخارا، وهو يتابع روى بنظره ويتمتم تمتمة استطعت أن أقرأها من حركة شفتيه "شعليه.... معليه.... شعليه... معليه..."

قلت له:

-عبودي... ارجع شوية.

لكنه لم يكن يسمع شيئا، سارحا، مادا ذراعيه امامه قليلا، مطبقا كفا على كف، ويحرك جسمه حركة ايقاعية برفعه كعبيه قليلا ثم ينزلهما ويرفع مقدمتي حذائه المهترئ ويعيدهما وهكذا. كان اشتعال النار بعبد الله كلمح البصر، انفجاراً صامتاً، أو نفخةَ تحسر، نثرتنا هبته، ومعها انتهى كل شيء، استحال عبد الله الى كتلة نار تركتنا وانطلقت بالاتجاه الذي جئنا منه على

الطريق المبلط، مرق كالسهم متجاوزا نقطة الحراسة عند البوابة أمام أنظار الشرطة المجفلين. بذلنا جهدنا في اللحاق به إلا أننا أدركنا استحالة أن نفعل شيئا لمساعدته فوقفنا نتفرج مع الشرطة عند البوابة الى عبد الله المتوهج في ذلك الصباح الشتوي وهو ينزل عن سدة الطريق ويمر ككرة نارية متدحرجة من أمام الخيمة ورأينا العجوز البدوي، الذي ربما لم يثر انتباهه شيء منذ زمن بعيد، يخرج من الخيمة ويقف ناظرا الى ما بدا له رؤيا مشتعلة مرت به في طريقها الى البرية، نحو الأفق البعيد.

10 نيسان 2019

الصياد

تنطوي بين الحين والآخر غلالة من غلالات الدخان فتبدو للعيان، إمرأة عجوز ترتدي الأسود وملامح وجهها ضائعة في سواد ملابسها، تتوكأ في سيرها على عصا أو قضيب حديد، لا يمكنه التأكد، وتحمل باليد الأخرى علما صغيرا بمستوى رأسها، وتسير متقدمة نحو الجنود المتأهبين ببنادقهم خلف صف من العوائق الحديدية والأسلاك الشائكة فيما يمكن رؤية الحواجز الاسمنتية خلفهم على مسافة عشرة أمتار تسد الجسر إلا من فتحة ضيقة من جهة سياجه تتسع لعبور الأفراد. ينظر العريف منخي الى المرأة والشبان الذين خلفها. تسير ببطء تجر سنينها المثقلة بالترمل والثكل، صامتة، والعلم يرفرف عند وجهها ويربت على خدها بين الحين والآخر. شاهد قبل قليل كيف حاول هؤلاء الشبان ثنيها عن التقدم نحو الجنود المتأهبين لإطلاق النار ثم بعد ذلك ساروا خلفها بالعشرات وهم يهتفون هتافات متشابكة "نريد إسقاط النظام... إرحلوا.... بإسم الدين سرقونا الحرامية". يلتفت نحو الضابط الواقف خلف جنوده ينظر الى الأمام بعينين قلقتين ويبدو عليه أنه يخير نفسه بين إصدار أمر إطلاق الرصاص أو أمر التراجع الى ما وراء الحواجز، تتقلص عضلات وجهه بعصبية، وفي لحظة ما يراه يثبت نظره على نقطة في أعلى بناية تفصل بينها وبين يسار الجسر ساحة وقوف سيارات فيلتفت هو أيضا نحو تلك النقطة ويراه، ذلك الرجل المتحرك على السطح منحنيا ويحمل قناصة ولا يبدو من رأسه سوى العينين من فتحة قناع الوجه، تحين منه التفاتة عابرة نحو الجنود عندما يصل الى سياج السطح المنخفض حيث يبرك ويهيئ قناصته للرمي وهو ينظر بين الحين والآخر الى العجوز والشبان خلفها والأمواج البشرية المتلاطمة عند الجسر. يعود منخي بنظره الى الضابط الذي يرفع صوته بالأمر "تهيأوا للرمي.... رمي حر.... كل الرصاص الذي في مخزن البندقية" ثم يوجه كلامه اليه مباشرة بنظرة ذات مغزى" وأنت يا عريف... لا أريد أن تضيع منك رصاصة هباء... سمعت أنك تذهب الى الصيد في إجازاتك... هذه فرصة لتجرب مهارتك في الصيد هنا". يجيب منخي "نعم سيدي" ويرمق بنظرةٍ مطمْئِنةٍ الجنودَ الذين التفتوا نحوه. كانوا قد عبّروا له منذ الأمس عن تخوفهم من أن يُفرض عليهم إطلاق الرصاص على المتظاهرين فأشار عليهم أن يرموا الى الأعلى وعلى جدران قريبة من

الجسر وأي اتجاه يراه الجندي آمنا. يتحرك ليصبح في أقصى الصف ولكن خلف قطعة من كتلة اسمنتية بارتفاع متر يجعلها بينه وبينهم ويبرك مستندا بظهره الى الكتلة.

يراقب منخي القناص الذي ينقل نظره بين المتظاهرين وبين صف الجند، ربما ينتظر أن يشرعوا بالرمي ليرمي هو على هدفه. يركز انتباهه عليه في تلك اللحظات القليلة لعله يتبين هدفه، غير أن وضعه واتجاه حركة رأسه يوحيان أن الشيء الذي يستحوذ على اهتمامه لحظتها ليس بعيدا.... العجوز ومجموعة الشبان. لا يمكن طبعا أن تكون مهمة ذلك القناص هي قتل عجوز بسيطة، ولكن ربما يعمد الى قتل أي شخص لعوامل نفسية لها علاقة بغريزة القاتل المستخف، أو يستفزه تحدي الضحية واستهانتها بالخطر، وربما يقتل بدافع النذالة لا غير كقتل امرأة سيكون قتلها مؤلما للناس ألما مضاعفا يفتك بتوازنهم العاطفي.

بينما يهيئ بندقيته الكلاشنكوف وينظر الى العجوز التي لم تتوقف عن تقدمها البطيء، والحثيث، والشبان الذين يهتفون خلفها، يسمع الضابط يعطي الإيعاز "إرمِ!" ويمتلئ الجو بلعلعة الرصاص، إثنتا عشرة بندقية تثور في وقت واحد فتتوقف المرأة العجوز ويندفع الشبان متوزعين نحو سياج الجسر من الجانبين ليقرفصوا هناك ووجوههم نحو الجنود بينما ينادون على المرأة. يرجع أحدهم اليها مسرعا ويحاول إقناعها بالاحتماء مثلهم ولكنها ترفض. يستمر الرمي كثيفا لدقيقة أو أقل الى أن يصبح متفرقا ومتقطعا حتى ينقطع تماما . يستعيد الجنود أنفاسهم التي حبسها التوتر ثم يأخذون بالنظر الى الأرض حولهم حيث تناثر الخرطوش الفارغ الأصفر اللامع تحت شمس تشرين.

يسمع الضابط يقول "تراجعوا الى خلف الساتر!". ويحتل مكانهم رماة قنابل الغاز. يستقل منخي وجنود الفصيل ناقلة تأخذهم الى المقر لقضاء وقت الاستراحة بعد أن قضوا الليلة الفائتة على الجسر. يضع خوذته على منضدة صغيرة جوار سريره وينزع حزام مخازن الرصاص ويخرج من أحد جيوب الحزام كيسا أفرغ فيه، في طريق عودتهم الى المقر، الرصاصات من المخزن، كلها عدا رصاصة واحدة أطلقها ولم يطلق غيرها، ويدسه تحت الفراش. يخلع حذاءه ويتمدد، وسرعان ما يروح في نوم عميق.

يتحدث الجنود في المساء عن خبر سمعوه في نشرات الأخبار يقول بأنه تم العثور على سطح إحدى البنايات على قناص قتيل مصاب برصاصة واحدة في الرأس.

7 تشرين الثاني 2019

ليلة الخرطوش

فضلت زوجته النوم مع طفلها الرضيع داخل الصريفة كعادتها، برغم الحر، حيث تشعر بأمان أكثر، فيما نام هو في الخارج. كان الهواء بعد منتصف تلك الليلة الصيفية خفيفا. إذا هب عليه من جهة الأرض البور، تضربه حرارة تجعل العرق يفور من جسمه فيحرك عباءته الصيفية العتيقة التي تغطى بها ليحتمي من البعوض وأنواع القوارص الطائرة، يوهم نفسه بأنه بتحريكه ذلك السَمَل يجلب هواء مختلفا، وإذا هب من جهة النهر البعيد، تحمل اليه نسائمه ما يخيل اليه أنها برودة منعشة وهو متمدد فوق فراشه المكون من قطع قماش مختلفة خيطت ببعض، ويدير وجهه نحو حقلي البامية والطماطم اللذين كساهما الليل من عتمته وأضفى عليهما بعض اللمعان نورُ قمرٍ كابٍ. يفكر بأنه قد أنهى حصْدَ القمح ودرْس البيادر مع الآخرين، وهذان الحقلان لا يلبث أن يحل آخر جَنْيٍ منهما فيكون قد أدى ما عليه وتقاضى أجره كغيره من الفلاحين الأجراء الذين جاءوا للعمل هنا، فيطوي حصران الصريفة وعيدانها داخلها في لفة واحدة ويربطها وحاجياته الأخرى الخفيفة فوق كيس الطحين، على حماره الحساوي، وينقلب عائدا الى ديرته تتبعه زوجته حاملة طفلها. هكذا قضى المواسم في سنواته الماضية مع زوجته السابقة حتى توفيت وتزوج هذه الشابة الصغيرة قبل سنتين بثمن محصول موسم، ليس من أرضه السبخة بل من العمل لدى الملاكين.

فكر أن هذا الموسم هو الأفضل فقد منحه المالك بضعة دنانير ومده بالطعام عندما باشر الزرع، وقد اشترى بقسم من المبلغ بندقية صيد، "كسْرية"، بحالة جيدة وإن كانت قديمة، فبندقية الصيد مرعبة للصوص وخردقها المنتشر لا بد أن يصيب الهدف إنسانا كان أم حيوانا. أجل... إنه يأمل أيضا أن يتكرم عليه المالك بأن يدفع له أجره نقودا بدلا من حصته من الحبوب. سيمر في طريق العودة بـ "الولاية" ليأكل وزوجته الكباب ويشتري لها ثوباً قماشُه "دم الغزال" ولنفسه دشداشة.

بينما هو سارح الذهن يفكر هكذا فيما يفعله بما يحصل عليه من دنانير فوجئ بكتلة سوداء مستطيلة تشخص الى جواره. تحركت الكتلة بعد سكون فتبين له أنها لرجل ملثم قد علق طرف دشداشته بحزامه فبانت ساقاه الى ما فوق الركبة، انحنى قليلا ينظر اليه مليا ثم باعد ما بين ساقيه ليجعله بينهما عند الخصر وتهيأ بخنجر لطعنه إذا تحرك. كان هو مغطيا حتى وجهه بالعباءة خفيفة النسيج ولكن بإمكانه أن يرى الرجل من خلالها، وحرص على أن لا يتحرك حتى حين سمع أصواتا مكتومة من داخل الصريفة تبين منها صوت زوجته المتوسل وعرف أن رجلا آخر معها. كان عليه أن يظل منتبها للرجل الواقف فوقه والذي انحنى ومد يده ليقلب طرف الفراش يريد التأكد إن كان يوجد شيء تحته، سلاح أو غيره، فأمال له نفسه قليلا الى اليمين مع حركة يده ليسمح له بالرؤية جيدا وفعل الشيء نفسه حين قلب الرجل طرف الفراش من الجهة الأخرى. بعد قليل جاء الرجل الثاني وأخذ مكان صاحبه الذي ذهب بدوره الى داخل الصريفة.

لا يدري، وهو جامد، ممدد على ظهره، ينظر بحذر الى الرجل المهيمن عليه ويستمع الى ما يصله من أصوات من داخل الصريفة، كم مضى عليه قبل أن ينصرف الرجلان متخذين الدرب ما بين الحقلين. لم يتعرف عليهما.. من هما؟ هل هما من القرية القريبة؟ كادا أن يختفيا تماما في الظلام حين قفز الى كومة حطب قريبة أخفى تحتها البندقية وبعض الخرطوش. ألقمها خرطوشة وسدد باستقامة الدرب وضغط على الزناد فسمع صوت القادح ولكن الإطلاقة لم تثر. ألقمها خرطوشة ثانية على عجل وهو يفكر بأنهما حتى إذا ابتعدا فإن الخردق المنتثر لا بد أن يصيبهما، غير أن الإطلاقة لم تثر أيضا. رمى البندقية أرضا وجلس على فراشه معطيا ظهره الى الصريفة، سمع زوجته التي لم تخرج اليه حتى بعد أن حل الفجر تحاول بصوت خفيض كسير إسكات الطفل الباكي. رفع رأسه ونظر على ضوء الغبش الى البندقية والخرطوشتين. التقطهما ونظر اليهما. كان يوجد أثر لضربة القادح. زم شفتيه ونهض على ركبتيه وتناول البندقية، ألقمها بغضب المهان إحدى الخرطوشتين ورفع فوهتها الى السماء وضغط فدوى صوتها عاليا، ونبحت كلاب البيوت في الناحية الأخرى من الحقل. ألقمها الثانية وضغط فتردد صداها في الآفاق، وراحت الكلاب في نباح شديد.

2019

سايكو عراقي

تقدمتني ناهدة الى غرفة الاستقبال حيث دعتني الى الجلوس على أريكة وثيرة بانتظار أن يخرج علوان من الحمام . نادت عليه قائلة:

– علوان....أبو مديحة هنا. استعجل.

كانت قد جلست على كرسي قريب وانحنت نحوي لتواصل كلامها ولكن بصوت خفيض:

–يجب أن تكلم صديقك....

توقعت أن يكون قد بدأ يزعجها بطلباته أو يكثر من جدالها بتأثير الجلوس الدائم في البيت ولا يجد شيئا ذا جدوى يشغل نفسه به في هذه الأيام، أيام حظر التجوال بسبب وباء كورونا.

قلت وأنا أميل نحوها معبرا عن اهتمامي:

–ماذا حدث؟

ردت بصوت أقرب الى الهمس:

–صار يقضي الكثير من الوقت في الحمام غاطا في البانيو ... يغني مختلف الأغاني عن الماء وطيور الشط، ولا أدري ما هي... هذه الأغنية عن البط...

قلت وأنا أخفي ضحكة تكاد تفلت مني خلف قناع من الجد

–هل تقصدين يا بط يا بط؟

–بالضبط...

أطرقت مفكرا وما لبث التفكير أن قادني الى ذكرى أذهبت عني المرح. نظرت اليها بعد لحظات متسائلا:

-هل ذكر شيئا عن نهر جاسم؟

فاجأها سؤالي وحدجتني بنظرة خرساء منتظرة مني أن أعطي توضيحا. استدرت في جلستي لأكون بمواجهتها تماما:

-تعرفين هناك بعض الذكريات تعاود المرء فجأة بعد زمن طويل... لا أحد يعرف كيف.... لكن هذا ما يحصل.

- ما هو نهر جاسم؟

كنت مطرقا فانتبهت لسؤالها. لم أتعجب لأنها لا تعرف، أو لم تعد تتذكر، نهر جاسم، وفي الحقيقة لا شيء يجعلني أشعر أنها ملزمة بمعرفة أو بتذكر هذا النهر فتعرفها على علوان وزواجهما جاءا بعد أحداثه بسنوات. قلت محاولا تغيير اتجاه الحديث:

-نهر قضينا الليل عائمين فيه.... نسبح فيه..

لم أقل لها أننا كنا جنديين في مقتبل العمر، في الثامنة عشرة، أرسلونا من المعسكر بعد تدريب أسبوع الى نهر جاسم مباشرة، وقد حاصرتنا النيران، نترك التيار يجرفنا مرة ومرة نندس بين قصب طالع وسط النهر لكي لا نقتل أو نؤسر، كما لم يكن ممكنا طبعا أن أقول لها أني غفوت بعض الوقت وأنا متعلق بالقصب فيما كان علوان لصقي يردد وهو في خوف شديد مثلي " يا بط... يا بط ...إسبح بالشط"......

****

2020

نقطة بيضاء مرفرفة

منذ ساعة وهو جالس الى المنضدة الدائرية أمام باب المطبخ المفتوح على سعته. سطح المنضدة الزجاجي في الظلمة يعكس التماعات لا يتبين مصدرها. نظر الى خزانة الأواني الى اليمين لصق الجدار، لعلها الكؤوس المرتبة في معرضها، أو ألمنيوم الخزانة نفسها، وربما السماء المظلمة في الخارج هي التي تعكس التماعاتها على السطح الشفاف الأملس. للظلمة التماعاتها أيضا. هكذا همس وهو يمرر يده على لحيته. استحقت الحلاقة، ولكنه لا يرغب الآن في إنارة المطبخ والوقوف أمام المرآة عند المغسلة ليقوم بعملية الحلاقة المملة. ليس بعد. لا يريد أن يفسد الراحة النفسية التي يبعثها فيه برد أول الشتاء الخفيف الذي ينسم من الخارج عليه. عاد الى مراقبة النقطة البيضاء المرفرفة التي تحوم عند الباب الخارجي، تختفي الى اليمين حيث الممشى، وتعود للظهور، وتختفي الى اليسار حيث شجرة الشبو الصغيرة عند ركن السياج، وتعود للظهور، وتحوم عند الباب الأخضر. همس.. "هذا ليس شجرة، باب، الباب الخارجي. يعني توجد فوقه السماء، يعني يمكنكِ أن ترتفعي قليلا وتعبريه فتكونين حيث تشائين من المطلق، في الفضاء. لم تحسني اختيار الوقت الذي تتجولين فيه بعيدا عن بيتك. إنه الليل".

دخلت زوجته المطبخ. مرت به وهي تسير على مهل ناظرة اليه نظرة توحي بالتساؤل أو التطلع. لا يدري... العتمة تحيل بشرتها المائلة الى البياض الى سمرة تخلط الملامح، ولكنه في لحظة ما رأى التماعا في عينيها. خطَفَ واختفى. سأل وهو ينظر الى ما وراء باب المطبخ المفتوح: "هل إنتهت حلقة المسلسل التركي؟" ، ولكنه كان يفكر "لقد طال اختفاؤها... من جهة شجيرة الشبو". استندت بيدها اليمنى الى حوض الغسيل مواصلة النظر اليه.. استياء أو تطلع. لم تجبه، فتحت الصنبور وألقت بيدها اليسرى بعض الماء على وجهها ثم استدارت نحوه وهي تمسح وجهها من الأعلى الى الأسفل فيما كانت لا تزال مستندة بيدها اليمنى الى الحوض. قالت بنبرة هي بين الشكوى واللوم " ألم أقل لك لا تفتح الباب هكذا؟ تدخل الينا

أشكال من الحشرات في هذا الليل من الأرض المجاورة". تمتم " المطبخ مظلم، لا يدخل شيء... إذا كنت تقصدين الحشرات الطائرة". ثم أضاف وهو يضع يديه على ركبتيه ويحرك أصابعه عليهما حركة العازف على بيانو "الشيء الوحيد الذي دخل هو فراشة". "فراشة؟" "نعم.... فراشة صغيرة بيضاء". "من أين أتت؟ ربما هي العثة". شعر بها تناكده. قال وهو يضغط على الأحرف " فـ راشة... فراشة". قالت باستسلام لا مبال "حسن...." وخطت نحو الباب فبادرها قائلا بحزم ولكن بصوت خافت "لا تفعلي... أتركيه مفتوحا".

توقفت ونظرت اليه هذه المرة باستسلام المستاءة. ثم تحركت مارة به نحو غرفة الجلوس. خاطبها مبتسما دون أن يلتفت وراءها

-أشعر أنك منزعجة من شيء آخر غير فتح الباب.... هل حدث خلاف بين جودت وعزيزة؟

وكشر كاتما ضحكته.

بعد قليل ارتخت ملامح الضحكة وإضمحل السرور على شفتيه وهو ينظر الى ما وراء مستطيل الباب. لم تظهر النقطة البيضاء المرفرفة بعد منذ أن اختفت باتجاه شجيرة الشبو. نهض على مهل، وفي طريقه الى الخارج تناول علبة السجائر والولاعة من فوق خزانة الأواني، وأخرج سيجارة وضعها بين شفتيه وأشعلها وهو يتمشى على مهل. عند العتبة توقف. مصباح الباحة محترق والعتمة هي السائدة إلا أن انعكاسات من أضواء الشارع تصل شاحبة وترتمي بوهن. جال ببصره في المساحة التي لا تتجاوز خمسة وعشرين مترا مربعا، نحو شجيرة الشبو الوحيدة عند صنبور الماء والمضخة، ونحو أشياء متروكة في الركن من جهة المطبخ، جردل وماسحة وخرطوم ماء، التفت الى الزهريات الثلاث اللواتي وضعهن عند الحائط المتصل بالممر، لا تزال شجيراتها الموسمية مجرد عيدان بعد، ولا أثر للفراشة. دلف من باب المطبخ الى الممر المسقف. كانت العتمة هناك أشد ولكنه قادر على الرؤية أيضا. لا توجد فراشة. رجع ووقف عند الباب الخارجي. نظر الى السماء. غييمات بيض تحف بها نتف ونقاط بيض أيضا تدفعها الريح الرقيقة نحو الشرق، نفس الريح التي تنسم على وجهه ببرودة منعشة، فكر "لا بد أنها فعلت الصحيح أخيرا... نحو الأعلى... فوق الباب... فوق الجدران... حيث المطلق" . ظل ناظرا الى الأعلى عارضا صفحته للنسمات يستدرجها اليه.

سمع خطوات زوجته خلفه تقترب. وقفت الى جانبه، لصق جسده. همست "ماذا..... الى ماذا تنظر؟" أحس بها تضغط بجسدها على جسده وتكرر بصوت مترقرق "الى ماذا تنظر؟" ، ألقى بعقب السيجارة وهو لا يزال مرفوع الرأس ، أمسك يدها وضغط على أصابعها، تلك الضغطة التي تحبها، اللذة المرتعشة الممزوجة بالألم الخفيف للأصابع المضغوطة. رفعت رأسها، وهي تشعر بذبذبات خفيفة تنبث في جسدها، لتنظر أيضا... نحو الأعلى...فوق الباب... فوق الجدران...حيث المطلق.

28 تشرين الأول 2018

المثلي

كانوا يعطون كلا منا علبة سجائر أسبوعيا، تنتهي خلال يومين أو ثلاثة ونحن آنذاك في معسكر، ربما شغله حراس الحدود سابقا، في مكان منقطع عن كل شيء على الحدود البلغارية مع صربيا. يجهزوننا ببعض الطعام ومستلزمات النظافة، ولدينا من الوقت أكثر من اللازم، نحن القادمون من بلدان عربية وأفريقية شتى، لنقضي الوقت نتمشى في الساحة المسيجة بالصفيح المغلْوَن، تحت سماء تحيط زرقتها جبالٌ يخيل إلي أني يمكنني في الأيام المشمسة أن أمد يدي وألمس صخورها وأشجارها ذات الألوان الخريفية. ثلاثة جمعتنا تلك الغرفة دون سابق معرفة، أنا وعيسى والذي سأسميه (سين)، يشغلنا التفكير بمصيرنا أكثر مما تشغلنا قلة الطعام والسجائر.

قال عيسى «إذا لم يسمحوا لنا بالعبور هذه الايام قد لا نستطيع أبدا. يقولون هناك مشاكل وربما تقوم حرب أهلية». فقال له سين ساخرا «وما هي وكالة الأنباء التي سمعت منها؟» نظر اليه عيسى بانزعاج وهو يراه يدخن بارتخاء واستمتاع، متمددا على سريره، واضعا يدا تحت رأسه فيما يضع بين أصابع اليد الأخرى سيجارته وينظر الى السقف غير مبالٍ بعذابنا ونحن نتحسر على عقب سيجارة. أضاف عيسى «كل المعسكر يعرف. لا تتمظهر علينا بهدوئك. ربما تمنع صربيا أي مسلم من عبور أراضيها». قلت لسين «هيا أعطنا من سجائرك سيجارتين ولا تكن لئيما». قال دون أن تتغير قسمات وجهه «لو تطلع روحاكما. أنتما تخشنان القول لي دائما بشأن الكثير من الأمور التافهة». قال عيسى «أتركه! هذا يريد أن نخدمه مقابل بعض السجائر اللعينة».

لم أحنق عليه ولكني كنت أتألم كلما اقتطعت قصاصة من دفتري الصغير، الذي أسجل فيه خواطري، لألف سيجارة من حفنة تبغ حصلنا عليها إذ لم أستسغ لف السيجارة بورق صحف ومجلات قديمة وجدناها في المكان. أما هو فقد كان ثعلبا ولم أعرف كيف يحصل على حصة مضاعفة، الى أن شاهدته غير مرة واقفا في ناحية بعيدة من السياج يتحدث مع شابة من

المهاجرات تقف في الجانب الآخر في القسم المخصص للنساء. لقد عثر على جانب من صفيحة يمكنه أن يدفعه على قدر فتحة صغيرة ثم يعيده. كان الاتصال بالنساء ممنوعا، ولكنه تدبر أمره، وعندما شاهدته يتحدث معها أول مرة لم أتبين أنها امرأة حتى اقتربت منهما لكني تراجعت فورا. أعترف أن سين كان وسيما حقا والفتاة، التي لم أعرف من أين هي، جميلة برغم ما يبدو من هزال على وجهها الظاهر من الفتحة التي يدير لها ظهره للتمويه. ربما كانت تدعي أنها مدخنة لتستلم له حصة. ثم تبين لي أن السجائر ليست الشيء الوحيد الذي حصل عليه منها.

«يقال أن لاجئين يعبرون بالرشوة يوميا بالحافلات المريحة من نقطة على الحدود في الجانب الآخر من هذه الجبال أمام أنظار الحراس، ونحن أتى بنا حظنا العاثر من هذا الطريق وحبسونا في معسكر تزورنا فيه كل شهر لجنة لا تعطي تصريحا لأحد». لم يكن سين حاضرا ليسمع نواح عيسى هذا، ولكنه «اقتحم" علينا الغرفة بعد قليل وهو يلهث: «جاءت اللجنة!» هز عيسى يده هازئا «اللجنة، هه.. أقبض!». جلس سين وأخذ يتحسس شيئا في جيب داخلي. «لكني سأعبر اليوم فيما ستقضيان الشتاء هنا». قلت «كيف وهم لا يصرّحون بالعبور الى الآن حتى للاجئين السياسيين؟» ضحك «سياسيون لاجئون! هذه لا تمشي هنا، ستريان ما الذي يمشي!» ودون مزيد من الايضاح ألقى بما بقي من سيجارته وأخرج مرآة وعقبيْ قلمِ حمرةٍ وقلم كحل. حمّر شفتيه ثم كحّل عينيه ومسح خديه بقليل من أحمر الشفاه. نظرنا اليه مندهشين، والحق أقول لكم، صار شكله أنثويا تماما. «ماذا تنوي أن تفعل؟» وضحكنا من القلب. هز رأسه ساخرا من ضيق أفقنا. لم نعرف ماذا كان ينوي أن يفعل بالضبط إلا حين دخل على اللجنة أمام ذهول المحتجزين الآخرين الواقفين معنا في الطابور، ومما سمعناه يقوله للمترجم «أنا مثلي، وفي بلدي يتعرض المثليون الى المضايقات وحتى القتل....». سمعنا ضربة ختم القاضي على أوراقه. خرج الينا بابتسامةٍ عريضةٍ محمَّرةٍ جعلتها تكشيرته بمنتهى القبح فيما كنا، أنا وعيسى، ننظر اليه كالعادة بحقد تخالطه الحسرة.

شيخ شبقي

نظر الشيخ الذي جاوز السبعين الى الراقصات الغجريات الثلاث في التلفزيون يرقصن على أنغام (يا نواخيذ خذوني معاكم)، تمعن في جمالهن الأخاذ غير المألوف عند فتيات الغجر، يدرن بخفة وينثرن شعرا باذخ السواد واللمعان، ويهززن أكتافهن هزا يبعث الرعشة في كيانه كله، وحدق بنهم في أوسطهن الأكثر اكتنازا، كانت تنظر اليه مباشرة، تهز له كتفيها وتميل رأسها يمينا ويسارا على رقبة طويلة رخامية البياض، وتغمز له وحده غمزات سرية ، وتعض شفتها السفلى. إبتسم بزهو ومسد شاربيه البيضاوين وهو يقول:

-والله أقدر الآن أصفطهن ثلاثتهن الواحدة جنب الأخرى.

سمعته عجوزه وهي مارة تتوكأ على عكاز فقالت:

-لا خطية حجي....لا تشيل خطيتهن.

ثم أضافت دون أن تتوقف أو حتى تلتفت:

-ألا تأتي معي الى المطبخ لنشرب الشاي سويا؟

بعد قليل إنتهت الرقصة فتوجه بكرسيه المتحرك نحو المطبخ وهو يدمدم:

-يجب أن تتعلم هذه العجوز، حتى ولو في هذا العمر، أن لا تتدخل فيما لا يعنيها!

شأن عائلي

كان والده حين يريد أن ينام في القيلولة، يتمدد على جنبه الأيمن ويصالب ذراعيه على صدره. إحدى عينيه غير ظاهرة من الوسادة فيما تبقى عينه الأخرى ظاهرة مفتوحة، ويظل هكذا، بعين واحدة، يجول بنظره على الصور المعلقة على الجدار الذي أمامه، وعلى الأفرشة. يغمض بين الحين والآخر عينا وسنى ويفتحها، وقد يقع بصره عليه فيراه ينظر اليه مبتسما فيغمض عينه بامتعاض كأنه يقول له: "الى ماذا تنظر؟ أحمق!" ولا يفتحها بعد.

هو الآن حين يريد أن ينام في القيلولة يتمدد على جنبه الأيمن ويصالب ذراعيه على صدره. إحدى عينيه غاطسة في الوسادة فيما عينه الأخرى ظاهرة مفتوحة، يجول بها على الجدار المواجه له، على الصور والأثاث، أحيانا يغمض عينا وسنى ويفتحها، وقد يقع بصره على صورة أبيه الوقورة دائما فيراه ينظر اليه مبتسما كأنه يقول له: "الى ماذا تنظر؟ أحمق!".

نص

كان بحاجة الى ما يثير فيه الرغبة في الكتابة، الى ما يجعله قادرا على كتابة نص جميل. ينظر حائرا الى الجدار الذي أمامه عبر المنضدة وهو جالس في غرفته في الطابق الثاني، خيالات تنعكس على الجدار من النافذة التي على يمينه، ظلال تمر دون انقطاع فتلقي لثوانٍ عتمة مريحة تنبهه الى أن النهار شتوي غائم ، يلتفت الى النافذة، يراقب الظلال تختفي ثم تعود لتتعاقب على الزجاج المشجر، ظلال خافقة، طيور، نعم طيور، اسراب طيور، الى أين ذاهبة؟ أم تراها تدور لتعود من جديد الى حيث كانت؟ يمد يده ليفتح النافذة ولكنه يتوقف، تظل يده معلقة في الهواء، في منتصف المسافة، ثم تعود لتستقر على المنضدة. لا، لا يريد أن يفتح النافذة، فلتكن هي الظلال فقط. يتسكع بصره على أشياء الغرفة، يكاد النص يداهمه كالعَبْرة ولكنه لا يعرف ما هو، إنه يحس حتى بطعمه على لسانه، يستشعر متعة التوق اليه وراحته، يكاد يكون في مكان ما، فيه أو لصقه، قريب في متناول يده. يقع نظره على الأيقونة، الزهرة، حيث يحفظ المقطوعات الموسيقية، يفتح الحافظة ويأخذ يستمع الى معزوفة (مون آمور)، تجذبه النغمات اليها منذ اللحظة الأولى، يحس بالشيء المألوف، دفء بشري يتنفس عند أذنه، عند صدره، عند رقبته، عطر جسد أنثوي يلتمع كالماء يدنو منه، يحتضنه، يلفه، ويضع أصابعه الناعمة على ظهره، على لوحي الكتف بالضبط، ويضغط، يضغط باشتهاء، ثم ترتخي اليدان، ويتلاشى الإحتضان، والعطر المضمخ بالجسد يتنائى مع تنائي الموسيقى مخلفا خيبة المتوحد وحزنه المرهق.

ينفجر ببكاء كالتوسل يهز جسده ولا يسمع منه سوى الشهقات، يشعر بعد قليل بارتياح مرتعش، يشعر بخدر الإكتفاء ونعاس الحزن بعد إجهاد البوح، يشعر أن بكاءه هذا هو النص الجميل الذي كان يريده.

نصيحة قاسية

يتذكر أن النمل المتدافع كان أكثر من أن يستطيع عصفور صغير مقاومته بعد أن سقط من عش في أعلى الشجرةِ الشاهقة وطوحت به أغصانها الى أن وصل الأرض ، وقصارى ما يفعل هو أن ينفض رأسه ليسقط عنه ما تراكم من نمل على منقارهِ وعينيه ويعود يستقر على ذهوله وأنفاسه تتلاحق منقلبا على جنبه قليلا، وفيما كان جناح تحت جسده المرتعش كان الجناح الآخر يحاول أن يخفق نحو تحليق أصبح بعيد المنال.

يتذكر أنه جلب ماء بوعاء وأخذ يغسل به رأس العصفور ويلقيه على الجسد المنتفض ليبعد النمل الذي أخذ ينهش الجسد العاري إلا من زغب لا يحميه، ولكن النمل لا يفتأ يتكاثر بمرور الوقت، ورائحة الموت تجذب المزيد والمزيد من النمال بأنواعها. مر به أبوه وقتها وتوقف ناظرا اليه والى العصفور الذي يبذل هو جهدا يائسا لإنقاذه.

يتذكر أن أباه قال له:

-بني... لا تعذبه بمحاولتك إبقائه حيا. يجب أن تتعلم من الآن أن هنالك أشياء من الأفضل أن ندعها تموت بسلام.

مودرن

قصة بعد القصة بزمن طويل

تلك كانت هي الموضة في أوساط الطلبة آنذاك. صداقة ثقافية، قد تستمر الى ما بعد التخرج، وربما الى ما بعد الزواج. ، فتى وفتاة يقيمان علاقة ليس هدفها الزواج بل يتشاركان خلالها الاهتمامات وتبادل الآراء، ولا بأس بين الحين والآخر أن يشكو أحدهما للآخر ما يعاني من الأمور أو يطلب نصيحة، وقد تصارحه بعلاقة حب بينها وبين شخص آخر، وعليه في هذه الحالة أن يكون حلاّل المشاكل الغرامية والناصح الأمين لقلب صديقته الثقافية، لا ينال من عسل العلاقة شيئا غير حنظلها، وهكذا كانت حال صديقنا المتأبط جان بول سارتر دائما. لم يمض وقت طويل حتى أخذت لقاءاتهما تقتصر في الغالب على موضوع واحد هو تجني العاشق المجهول الذي توافقا ضمنا أن يبقى مجهولا لأنه لم يسألها يوما ولم تخبره هي، وهذه واحدة من الميزات الجذابة لتلك الموضة. لكن الصديقة لم تكن تكف عن الشكوى، ولأنها بنظره نسخة من سيمون دو بوفوار بلا عيوبها وبلا (قوة الأشياء) ، فقد قرر أن يعوضها بحبه الصادق عن الحب الكاذب لذلك المعشوق، وقرر أن يتزوجها، حتى لو لم يفعلها جان بول سارتر.

غير أن سارتر العراقي، الذي بلا وجود ولا عدم، أخذ يشكو بين الحين والآخر لأصدقائه مما يلاقي من الزواج والزوجة، ولم يمض وقت طويل حتى غدت الشكوى فقرة أساسية في برنامج كل لقاء، وفي يوم، نظر اليه أحد أصدقائه، مثقف على الطريقة العراقية، قال له وهو يهز رأسه بتعاطف وأسى:

–حبيبي سارتر.... كل هذا لأنك لم تقرأ (الجنس الآخر) قبل أن تتخذ قرارك بالزواج أو بعدم الزواج.

نبذة عن المؤلف



جودت جالي من مواليد 1951 في بغداد بقرية الرستمية. مارس هواية الرسم والتمثيل والكتابة للمسرح في النشاطات الطلابية والشبابية وكتب الشعر ونشره وحاز على العديد من الجوائز في المهرجانات الشبابية والطلابية وجائزة تقديرية من إذاعة صوت الجماهير. له قصائد وقصص ومقالات منشورة منذ أوائل السبعينيات. عضو اتحاد الأدباء وله كتب:

عن دار الشؤون الثقافية

***(نصوص عن بول ريكور) 2012 مقالات مترجمة عن فكر ريكور بقلم ريكور وكتاب آخرين.**

***(في المنهج الأخلاقي للعمل السينمائي) 2016 مقالات مترجمة لعدة كُتّاب.**

وعن دار ضفاف:

***(التودد الى الزوجة) 2018 مختارات قصصية مما ترجمه خلال ثلاثين عاما.**

***(فك الحزن) 2017 مجموعة قصصية.**

***(مارواه العجوز حكمان عن الفتى الجميل جوهر) 2018 مجموعة قصصية.**

***(جهات السينما الأربع) 2017 مقالات في أفلام سينمائية.**

***(الهجاء السياسي في الشعر العراقي) 2017 مقالات في الأدب والفن والثقافة عموما.**

***(لا وقت لهديل الحمام) 2019 رواية قصيرة.**

وعن دار المأمون:

***(حرب المهرجين) 2019 مختارات قصصية لكتاب عالميين.**

وله قصة (ممشى الكالبتوس) في كتاب مشترك (مسابقة سافرة جميل حافظ للقصة القصيرة دورة 2017).

ومن إصداراته الألكترونية:

***(شداد تحت الخربوش) رواية بدوية 2020**

***(الهروب العظيم)مجموعة مقالات ثقافة عامة منوعة**

***(أكاذيب) مختارات قصصية أجنبية مترجمة**

***وهذه المجموعة (نقطة تبادل التوابيت)**

منح شهادة تقديرية من اتحاد الادباء والكتاب في العراق.